الباب الثاني

باب الرياء

obeikandl.com

obeikandl.com

باب الرياء

الرياء: مشتق من الرؤية مصدر راءى يرائي، والمصدر رياءً، كقاتل قتالًا.

وحقيقة الرياء لغة: أن يُري غيرهُ خلاف ما هو عليه.

يقول الفيروز آبادي: راءيته مراءاة ورياء: أريته على خلاف ما أنا عليه[١].

الرياء شرعًا: أن يعبد الله ليراه الناس فيمدحوه على كونه عابدًا، وليس يريد أن تكون العبادة للناس؛ لأنه لو أراد ذلك، لكان شركًا أكبر، والظاهر أن هذا على سبيل التمثيل، وإلا فقد يكون رياء، وقد يكون سماعًا، أي يقصد بعبادته أن يسمعه الناس فيثنوا عليه، فهذا داخل في الرياء، فالتعبير بالرياء من باب التعبير بالأغلب[٢]، أما إن أراد بعبادته أن يقتدي الناس به فيها، فليس هذا رياء بل هذا من الدعوى إلى الله عَزَّوَجَلَّ والرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «**فعلت هذا لِتأتمُّوا بي، وتعلموا صلاتي**»[٣].

أقسام الرياء

ينقسم الرياء باعتبار إبطاله للعبادة إلى قسمين:

القسم الأول- أن يكون في أصل العبادة، أي ما قام يتعبد إلا للرياء، فهذا عمله باطل مردود عليه لحديث أبي هريرة في «الصحيح» مرفوعًا: قال الله تعالى: «**أنا أغنى الشُّركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه**»[٤].

القسم الثاني- أن يكون الرياء طارئًا على العبادة أي أن أصل العبادة لله، لكن طرأ عليها الرياء، فهذا ينقسم إلى قسمين:

---

(١) بصائر ذوي التمييز (٣/ ١١٦).

(٢) «القول المفيد» للعلامة محمد بن عثيمين.

(٣) أخرجه البخاري برقم [٩١٧]، ومسلم برقم [٥٤٤].

(٤) رواه مسلم من حديث أبي هريرة.

الأول- أن يدافعه، فهذا لا يضره:

مثلًا: رجل صلى ركعة، ثم جاء أناس في الركعة الثانية، فحصل في قلبه شيء بأن أطال الركوع أو السجود أو تباكى أوما أشبه ذلك، فإن دافعه، فإنه لا يضره لأنه قام بالجهاد.

الثاني- أن يسترسل معه، فكل عمل ينشأ عن الرياء، فهو باطل كما لو أطال القيام، أو الركوع أو السجود، أو تباكى فهذا كل عمله حابط، هل هذا البطلان يمتد إلى جميع العبادة أم لا؟ الإجابة على هذا لا تخلو من حالين.

الحال الأول - أن يكون آخر العبادة مبنيًّا على أولها، بحيث لا يصح أولها مع فساد آخرها، فهذه كلها فاسدة.

وذلك مثل الصلاة، فالصلاة مثلًا لا يمكن أن يفسد آخرها ولا يفسد أولها، وحينئذ تبطل الصلاة كلها إذا طرأ الرياء في أثنائها ولم يدافعه الإنسان.

الحالة الثانية - أن يكون أول العبادة منفصلًا عن آخرها بحيث يصح أولها دون آخرها، فما سبق الرياء فهو صحيح وما كان بعده فهو باطل.

مثال ذلك: رجل عنده مائة جنيه فتصدق بخمسين جنيه بِنيَّةٍ خالصةٍ، ثم تصدق بخمسين بقصد الرياء فالأولى مقبولة، والثانية غير مقبولة؛ لأن آخرها منفك عن أولها.

فلو قيل: لو حدث الرياء في أثناء الوضوء، هل يلحق بالصلاة فيبطل كله، أو الصدقة فيبطل ما حصل فيه الرياء فقط.

الجواب- يحتمل هذا وهذا فيلحق بالصلاة؛ لأن الوضوء عبادة واحدة يُبنى بعضها على بعض، ليس تطهير كل عضو عبادة مستقلة، ويلحق الصدقة لأنه ليس كالصلاة من كل وجه ولا الصدقة من كل وجه؛ لأننا إذا قلنا ببطلان ما حصل فيه الرياء، فأعاد

تطهيره وحده لم يضر، لأن تكرار غسل العضو لا يبطل الوضوء ولو كان عمدًا، بخلاف الصلاة فإنه إذا كرر جزء منها كركوع أو سجود لغير سبب شرعي، بطلت صلاته، فلو أنه بعد أن غسل يديه رجع وغسل وجهه، لم يبطل وضوءه، ولو أنه بعد أن سجد رجع وركع، بطلت صلاته، والترتيب موجود في هذا وهذا لكن الزيادة في الصلاة تبطلها، والزيادة في الوضوء لا تبطله، والرجوع مثلًا إلى الأعضاء الأولى لا يبطله أيضًا، وإن كان الرجوع في الحقيقة لا يعتبر وضوءً لأنه غير شرعي، وربما يكون في الأولى غسل وجهه على أنه واحدة، ثم غسل يديه، ثم قال: الأحسن أن أكمل الثلاث في الوجه أفضل، فغسل وجهه مرتين، وهو سيرتب أي سيغسل وجهه ثم يديه، فوضوءه صحيح، ولو ترك التسبيح ثلاثًا في الركوع وبعدما سجد قال: فَوَّتُّ على نفسي فضيلة سأرجع لأجل أن أُسَبِّح ثلاث مرات، فتبطل صلاته.

ذم الرياء

قال الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الإحياء): اعلم أن الرياء حرام والمرائي عند الله ممقوت، وقد شهدت لذلك الآيات والأخبار والآثار[1].

قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

قال جميع أهل التأويل: معنى قوله ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ أي: لا يرائي بعمله أحدًا، فيجعل الرياء شركًا لأنه جعل ما يقصد به وجه الله تعالى مقصودًا به غير الله[2].

---

(١) انظر: «إحياء علوم الدين» (٣/ ٢٧٤).

(٢) انظر كتاب «إيقاظ الهمة» لشيخنا الفاضل/ حلمي الرشيدي حفظه الله تعالى.

قال ابن كثير في قوله: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ أي: ما كان موفقًا لشرع الله وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ وهو الذي يراد به وجه الله وحده لا شريك له، وهذان ركنا العمل المتقبل، لابد أن يكون خالصًا لله، صوابًا على شريعة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[1].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال الله عَزَّوَجَلَّ: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل لي عملًا أشرك فيه غيري، فأنا منه بريء وهو للذي أشرك**»[2].

وفي الحديث من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا أموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»[3]، وفي الحديث من حديث جندب قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من سمّع**[4] **سمّع الله به ومن يرائي يرائي الله به**»[5].

وعن أبي ذر قال: قيل لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: رأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه، وفي رواية: يحبه الناس عليه، قال: «**تلك عاجل بشرى المؤمن**»[6].

حدثنا سويد بن نهر، أخبرنا عبد الله بن المبارك، أخبرنا حَيْوة بن شريح، أخبرني الوليد بن أبي الوليد أبو عثمان المدائني، أن عقبة بن مسلم حدثه، أن شفيًّا الأصبحي حدثه أنه دخل المدينة، فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس، فقال: من هذا؟ فقالوا:

---

(١) تفسير ابن كثير.

(٢) صحيح رواه ابن ماجة والبيهقي وابن خزيمه وصححه الشيخ الألباني «صحيح الترغيب» [٣١].

(٣) رواه مسلم.

(٤) سمَّع أي: عمل عملًا للسُّمعةِ بأن نوَّه بعمله وشهره ليسمع الناس ويمدحوه، وسمع الله به أي شَهَّرَ به وفضحه.

(٥) الحديث متفق عليه.

(٦) رواه مسلم.

أبو هريرة فدنوت منه حتى قعدت بين يديه، وهو يحدث الناس، فلما سكت وخلا قلت له: أنشدك بحق وبحق لما حدثتني حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ عقلته وعلمته، فقال أبو هريرة: أفعل، لأحدثنك حديثًا حدثنيه رسول الله ﷺ عقلته وعلمته ثُمَّ نشغ[1]، أبو هريرة نشغة فمكث قليلًا ثم أفاق فقال: لأحدثنك حديثًا حدثنيه رسول الله ﷺ، في هذا البيت ما معنا أحد غيري وغيره ثم نشغ أبو هريرة نشغة أخرى، ثم أفاق فمسح وجهه فقال: لأحدثنك حديثًا حدثنيه رسول الله ﷺ وأنا وهو في هذا البيت ما معنا أحد غيري وغيره، ثم نشغ أبو هريرة نشغة أخرى، ثم قام ومسح وجهه فقال: أفعل، لأحدثنك حديثًا حدثنيه رسول الله ﷺ وأنا معه في هذا البيت ما معه أحد غيري وغيره، ثم نشغ أبو هريرة نشغة شديدة، ثم مال خارًّا على وجهه فأسندته عليَّ طويلًا ثم أفاق فقال: حدثني رسول الله ﷺ: «**إن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم، وكل أمة جاثية، أول من يدعو به رجل جمع القرآن، ورجل يقتل في سبيل الله، ورجل كثير المال، فيقول الله للقارئ: «ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي؟» قال: بلى، قال: «فماذا عملت فيما علمت؟» قال: كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار، فيقول الله له: «كذبت» وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله: «بل أردت أن يقال: إن فلانًا قارئ فقد قيل ذاك» ويؤتى بصاحب المال فيقول الله له: «ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟» قال: بلى يارب، قال: «فماذا عملت فيما آتيتك؟» قال: كنت أصل الرحم وأتصدق، فيقول الله له: «كذبت» وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله تعالى: «بل أردت أن يقال فلان جواد فقد قيل ذاك»، ويؤتى بالذي قُتِل في سبيل الله فيقول الله له: «في ماذا قتلت؟» فيقول: أمرت بالجهاد في سبيلك فقاتلت حتى قُتلت، فيقول الله تعالى له: «كذبت» وتقول الملائكة: كذبت**

(١) نشغ: أي شهق حتى كاد أن يغمى عليه.

ويقول الله: «بل أردت أن يقال فلان جريء فقد قيل ذاك»، ثم ضرب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ركبتي فقال: «يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة»[1].

ذم طلب العلم لغير وجه الله تعالى

فأول ما على طالب العلم: أن يحسن نيته، ويصلح طويته، ويتصور أن هذا العمل الذي قصد له، والأمر الذي أراده، هو الشريعة التي شرعها الله سبحانه وتعالى لعباده، وبعث بها رُسله وأنزل بها كتبه، ويجرد نفسه عن أن يشوب ذلك بمقصد من مقاصد الدنيا، أو يُخلط بما يكدره من الإرادات التي ليست منه، كمن يريد به الظفر بشيء من المال، أو يصل به نوع من الشرف، أو البلوغ إلى رئاسة من رئاسات الدنيا، أو جاه يحصله به؛ فإن العلم طيب لا يقبل غيره، ولا يحتمل الشركة، والروائح الخبيثة إذا لم تغلب على الروائح الطيبة فأقل الأحوال أن تساويها، وبمجرد هذه المساواة لا تبقى للطيب رائحة، والماء الصافي العذب الذي يستلذه شاربه كما يكدره الشيء اليسير من الماء المالح، فضلًا عن غير الماء من القاذورات بل تنقص لذته مجرد وجود القذارة فيه، ووقوع الذباب عليه، هذا على فرض أن مجرد إشراك العلم مع غيره له حكم في هذه المحسوسات[2]، وهيهات ذاك، فإن من أراد أن يجمع في طلبه العلم بين قصد الدنيا والآخرة، فقد أراد الشطط، وغلط أقبح الغلط، فإن طلب العلم من أشرف أنواع العبادات، وأجلها، وأعلاها وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

فقيَّد الأمر بالعبادة بالإخلاص الذي هو روحها[3]، فإن فقد العلم «إخلاص النية» انتقل من أفضل الطاعات إلى أحط المخالفات، ولا شيء يحط العلم مثل الرياء،

(١) أخرجه: مسلم في «الإمارة» [١٩٠٥]، الترمذي برقم [٢٣٨٢]، «الزهد» النسائي في «الجهاد» [٣١٣٧]، وأحمد في «المسند» [٨٠٧٨]. قوله: (نشغ) أي: شهق حتى كاد أن يغمى عليه.

(٢) انظر: كتاب «إيقاظ الهمة» لشيخنا الفاضل المحدث حلمي الرشيدي حفظه الله ص [١٠٢].

(٣) «آداب الطلب» للشوكاني ص [٢٨-٢٩].

رياء شرك، أو رياء إخلاص، ومثل التسميع بأن يقول مسمعًا: علمت وحفظت، وعليه فالتزم التخلص من كل ما يشوب نيتك في صدق الطلب، كحب الظهور، والتفوق على الأقران، وجعله سلمًا لأغراض وأعراض من جاهٍ أو مالٍ، أو تعظيم، أو سمعة، أو طلب محمدة أو صرف وجوه الناس إليك، فإن هذه وأمثالها إذا شابت النية أفسدتها، وذهبت بركة العلم(١).

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من طلب العلم ليباهي به العلماء، أو ليماري به السفهاء، أو ليصرف به وجوه الناس إليه فهو في النار**»(٢).

وفي رواية: «**من طلب العلم ليجاري به العلماء، أو ليمارى به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار**»(٣).

وفي رواية: «**لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء، ولا تماروا به السفهاء، ولا تخيروا به**(٤) **المجالس فمن فعل ذلك فالنار النار**»(٥).

وقال أيضًا: «**من تعلم علمًا مما يُبتغى به وجه الله تعالى، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضًا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة**»(٦)، يعني ريحها، ولا تنس أخي الطالب قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣].

---

(١) «الذخيرة» للقرافي (١/ ٤٥) نقلًا عن «حلية الطالب» ص [٦٦].

(٢) رواه ابن ماجة عن عمر، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى في «صحيح الترغيب» و«صحيح الجامع» [٦٣٨٢].

(٣) رواه الترمذي وابن أبي الدنيا والحاكم عن كعب بن مالك، وصححه الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى في «صحيح الترغيب» و«صحيح الجامع» [٦٣٨٣].

(٤) أي لتقصدوا خير المجالس وأفضلها.

(٥) رواه ابن ماجة وابن حبان والبيهقي عن جابر وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب» برقم [٤١٠٢].

(٦) رواه أبو داود وابن ماجة وابن حبان والحاكم، وقال: صحيح على شرط الشيخين وصححه الشيخ الألباني والحديث رواه أبو هريرة.

وقوله تعالى لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ﴿١٤﴾ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ﴾ [الزمر: ١٤-١٥].

ولقد علمت أخي المسلم أن الإخلاص، تصفية العمل من كل شوب، أن لا يمزج المسلم عمله ما يشوب من شوائب إرادات النفس إما طلب تعظيم، أو طلب أموالهم، أو خدمتهم ومحبتهم، وقضائهم حوائجك، أو غير ذلك من العلل والشوائب التي عقد متفرقاتها: هو إرادة ما سوى الله بعمله، كائنًا من كان[1].

قال عون بن عمارة: سمعت هشامًا الدستوائي يقول: والله ما أستطيع أن أقول: إني ذهبت يومًا قط أطلب الحديث أريد به وجه الله عَزَّوَجَلَّ، قال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ في «السِّير» (٧/ ١٥٢-١٥٣)، قلت: والله ولا أنا، فقد كان السلف يطلبون العلم لله فنبلوا، وصاروا أئمة يُقتدى بهم، وطلبه قوم منهم أولًا لا لله وحصلوه، ثم استقاموا وحاسبوا أنفسهم فجرهم العلم إلى الإخلاص. في أثناء الطريق، كما قال مجاهد وغيره: طلبنا هذا العلم وما لنا فيه كبير نية، ثم رزقنا الله النية بعده، وبعضهم يقول: طلبنا هذا العلم لغير الله فابى أن يكون إلا لله فهذا أيضًا حسن، ثم نشره بنية صالحة.

وقوم طلبوه بنية فاسدة لأجل الدنيا، وليثنى عليهم فلهم ما نووا، وقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «من غزا ينوي عقالًا فله ما نوى»، وترى هذا الدرب لم يستضيئوا بنور العلم، ولهم واقع في النفوس، ولا لعلمهم كبير نتيجة من العمل، وإنما العالم من يخشى الله تعالى، قوم نالوا العلم، وولوا به المناصب، فظلموا، وتركوا التقيد بالعلم، وركبوا الكبائر، والفواحش، فتبًّا لهم، فما هؤلاء بعلماء وبعضهم لم يتّقِ الله في علمه، بل ركبوا الحيل وأفتى بالرخص وروى الشاذ من الأخبار، وبعضهم اجترأ على الله، ووضع الأحاديث، فهتكهُ الله، وذهب بعلمه وسار زاده إلى النار، وهؤلاء الأقسام كلهم رووا من العلم شيئًا كثيرًا،

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٩٦).

وتطلعوا منه في الجملة، فخلف من بعدهم خَلْفٌ بَانَ نقصهم في العلم والعمل، وتلاهم قوم انتموا إلى العلم في الظاهر، ولم يتقنوا منه سوى نذر يسير، فأوهموا به أنهم علماء فضلاء، ولم يدر في أذهانهم قط أنهم يتقربون به إلى الله؛ لأنهم ما رأوا شيخًا يُقتدى به في العلم، فساروا همجًا ورعاعًا، غاية المدرس أن يحصل كتبًا ثمينة ويخزنها، وينظر فيها يومًا ما، فيصحف ما يورده ولا يقره، فنسأل الله النجاة والعفو، كما قال بعضهم: ما أنا عالم ولا رأيت عالمًا فعلى من يطلب العلم من المسلمين أن يصحب في طلبه الإخلاص، فهو للعلم بمنزلة الرأس من الجسد، والروح للبدن فمن صحب الإخلاص في طلبه فليعلم أن الله مُبَلِّغُهُ ما أراد.

الفرق بين الرياء والسمعة

لقد بوَّب الإمام البخاري بابًا في صحيحه يذكر فيه «باب الرياء والسمعة» ثم ذكر الحافظ ابن حجر تحت هذا الباب الفرق بين الرياء والسمعة.

الرياء هو: بكسر الراء وتخفيف التحتية والمد وهو مشتق من الرؤية والمراد به، إظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها فيحمدوا صاحبها، والرياء متعلق بحاسة البصر (وهو رؤية الناس للعمل الذي يعمله العامل).

أما السمعة: بضم المهملة وسكون الميم مشتقة من سمَّع، والمراد بها نحو ما في الرياء لكنها تتعلق بحاسة السمع.

وقال الغزالي: المعنى طلب المنزلة في قلوب الناس بأن يريهم الخصال المحمودة والمرائي هو العامل وقال العز بن عبد السلام: الرياء أن يعمل لغير الله، والسُّمعة أن يخفي عمله لله ثم يحدث به الناس[1].

(١) «فتح الباري شرح صحيح البخاري» (١١/ ٣٨٠).

الترهيب من الرياء والسمعة

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ [النساء: ٣٨].

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

وقيل في تفسير قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨].

أي: إلا ما أُريد به وجه الله، ورُوي عن مجاهد في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر: ١٠]. قال: أصحاب الرياء، وقال سعيد بن جبير في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٩]، قال: ما أعطيتم من عطية لتثابوا عليها في الدنيا، فليس فيها أجر.

وقيل في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]. أي: لا يعبد معه غيره، ولا يعمل عملًا فيه رياء وسمعة، ولا يكتسب الدنيا بعمل الآخرة.

وفي الحديث أنه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**من سمّع، سمّع الله به ومن يرائي يرائي الله به**»[1]، هذا حديث متفق على صحته، قوله: «**من سمع سمع الله به**» يريد من عمل عملًا على غير إخلاص، وإنما يريد أن يراه الناس ويسمعونه[2].

قوله: «**سمع الله به**» يريد: يجازيه على ذلك بأن يشهره ويفضحه، فيبدو عليه ما كان يُسرُّهُ من ذلك وفي الحديث أنه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**»

---

(١) أخرجه البخاري (١١/ ٣٨٠) كتاب «الرقائق» باب الرياء والسمعة [٦٤٩٩]، وطرفه في [٧١٥٢]، ومسلم (٤/ ٢٢٨٩)، كتاب «الزهد» باب من أشرك في عمله غير الله (٤٨/ ٢٩٨٧)، وابن ماجة كتاب «الزهد» باب الرياء والسمعة [٤٢٠٧].

(٢) ذكره الإمام البغوي في كتاب «السنة» باب الرياء والسمعة.

قالوا: يا رسول الله وما الشرك الأصغر؟ «قال: الرياء، يقول الله لهم يوم يجازى العباد بعملهم، اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء»[(١)].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إن الله تبارك وتعالى يقول: إني أغنى الشركاء عن الشريك، فمن عمل عملًا أشرك فيه غيري، فأنا منه بريء هو للذي عمله»[(٢)].

ويروي مرفوعًا: لا أجر لمن لا حسبة له[(٣)]، وقال الحسن: أعِزَّ أمر الله، يعزك الله.

أسباب الرياء

اعلم أيها الأخ الكريم -علمني الله وإياك وسائر المسلمين- أن الرياء داء عظيم نسأل الله منه السلامة، وخلُوص القلب منه لا يكون إلا بالاستعانة بالله العلي القدير فإن أسباب هذا الداءُ العُضال بينه لنا سيد الأطباء طبيب القلوب ودواؤها وشفاء الأبدان وأسقامها محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما أخبر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث[(٤)] الصحيح أنه يخاف علينا الشرك الخفي أكثر مما يخاف علينا المسيح الدجال، وما ذلك إلا لأن الداعي إلى الرياء قوي، إذ النفوس مجبولة على حب الرئاسة والمنزلة في قلوب الخلق إلا من سلّم الله، وقد أحسن الشاعر حيث يقول:

---

(١) أخرجه الإمام البغوي في كتاب «السنة» (٧/ ٣٤٣)، وقال محققه: ذكره الغزالي في «الإحياء» وعزاه الحافظ في تخريجه (٣/ ٢٩٤)، لأحمد والبيهقي وقال: رجاله ثقات ورواه الطبراني من رواية محمد بن لبيد عن رافع بن خديج.

(٢) أخرجه مسلم برقم [٤٦-٢٩٨٥]، وابن ماجة برقم [٤٢٠٢].

(٣) ذكره السيوطي في «الجامع الصغير»، وعزاه لابن المبارك عن القاسم مرسلًا.

(٤) رواه ابن ماجة «مشكاة المصابيح» قال الشيخ الألباني: هو حديث، نص الحديث: عن أبي سعيد الخدري قال: خرج علينا رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونحن نتذاكر الدجال فقال: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟» فقلنا: بلى يا رسول الله قال: «الشرك الخفي أن يقوم الرجل فيصلي، فيزيد صلاته، لما يرى من نظر الرجل».

قال الدكتور عمر بن سليمان[١]: قد لا نكون مغالين في القول إذا ذهبنا إلى أن الداعي إلى الرياء أعظم من الداعي إلى الشرك الأكبر، فالشرك الأكبر معدوم في قلوب المؤمنين الصادقين، ولهذا يكون الإلقاء في النار أسهل عندهم من الكفر كما جاء في الحديث، أما داعي الرياء فهو من الدنيا التي قال الله فيها: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأعلى: ١٦]. وقال تعالى: ﴿تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾ [القيامة: ٢٠-٢١].

والأمور التي تدعو إلى الرياء مغروسة في أعماق النفس الإنسانية فهي حبيبة إلى نفس الإنسان، أثيرة لديه، وقد حصرها المحاسبي[٢] في ثلاثة أمور:

١- حب المحمدة وخوف المذمة.

٢- الضعة[٣] في الدنيا.

٣- والطمع لما في أيدي الناس.

ولا يحتاج هذا الذي قرره المحاسبي إلى دليل فالإنسان يجد في نفسه: أنه يحب أن يعلم العباد بطاعته لربه، فيوصل ويعطي ويكره، ويحب أن يحمد: يُثنى عليه ويعظم، ويكره أن يذم، فيفعل الطاعة لئلا يذم بقلة الرغبة فيها[٤].

---

(١) في كتاب «الإخلاص».

(٢) «الرعاية» [١٣٨-١٣٩].

(٣) الضعة: الدناءة، والوضيع: الدنيء.

(٤) «الرعاية» ص [٣٩].

وقد شرح لنا الحارث المحاسبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى حديث أبي موسى الأشعري، وبين دلالته على أن الرياء إنما يبعث عليه الأمور الثلاثة التي ذكرها، فالأعرابي السائل للرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: يارسول الله، الرجل يقاتل حمية[1].

ومعنى ذلك كما يقول الحارث، إنه يحمى فيأنف أن يقهر أو يذم بأنه غلب أو غلب قومه، فيقاتل لذلك.

قال: الرجل يقاتل ليرى مكانه، وهذا طلب الحمد بالقلب ومعرفة القدر.

قال: ورجل يقاتل للذكر، وهذا طلب الحمد بالألسن.

وذكر حديث ابن مسعود: إذا التقى الصفان نزلت الملائكة فيكتبون الناس على نياتهم، فلان يقاتل لذكر، ومعنى ذلك حمد المخلوقين، وفلان يقاتل للملك، وهذا جمع الدنيا، ثم جعل الحارث المحاسبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى هذه الأسباب الثلاثة التي تبعث على الرياء وتهيجه إلى اثنتين ثم إلى واحدة، قال: ويجمع ذلك كله حب المحمدة وخوف المذمة، لأن العبد يعلم أنه لا ينال ما عند ربه إلا أن يحمده عليها، فتؤول أموالهم، وإنه ما جزع من الذمِّ لحبه للمحمدة كراهية أن يزول عنه حمدهم، فتؤول هذه الثلاثة إلى حب المحمدة، إلا أنها تشعبت وتفرقت على أقدار الناس وقدر مراتبهم[2].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) «الرعاية» ص [١٣٩].

علامات المرائين

١- ترك العمل لأجل الناس:

ذكر الإمام الذهبي في السير، عن محمد بن عبدويه: سمعت الفضيل يقول: ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله عنهما[١].

قد يعالج الناس خطأ فيقعون في خطأ مثله أو أشد منه، وتلك مشكلة عانى منها الناس قديمًا وحديثًا، أمرنا الله بالعبادة مخلصين له الدين، وفي النفس نوازع تدعونا إلى الميل عن طريق الإخلاص، فلما رأى الناس هذا اتجهوا اتجاهات مختلفة، فريق رام مجاهدة الرياء، حتى يقتلع جذوره، فلا يبقى في نفسه ميل إلى الرياء، ولا خاطر يدعوا إليه، وهؤلاء طلبوا عظيمًا وراموا مستحيلًا، فالناس لم يؤمروا أن يخرجوا وساوس إبليس أن تعترض في صدرهم، ولم يؤمروا بأن يغيروا خلقهم وطباعهم، حتى تسير لا تنازع إلى معنى من زينة الدنيا ومن رياء ولا غيره، حتى تكون طبائعهم الحمد فيها مكروه والذم فيها محبوب[٢].

لم يؤمر العباد بذلك أبدًا، فهذا أمر غير مقدور والله لا يكلف نفسًا إلا وسعها، والجهود التي تبذل في غير مكانها جهود ضائعة، لا تعود على صاحبها بفائدة، فنحن نلاحظ أن بعض الأمور التي دعانا الله إليها مكروهة للنفوس: كقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]. وبعض الأمور التي نهينا عنها محبوبة للنفوس: قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ

---

(١) «سير أعلام النبلاء» للإمام الذهبي (٧/ ٣٩٦)، ترجمة الفضيل بن عياض، وقال الشيخ حلمي حفظه الله: وقد رواه ابن أبي الدنيا في «كتاب الإخلاص».

(٢) «الرعاية» [٢٠٧].

مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ﴾ [آل عمران: ١٤]. وقد يطلب الإنسان شيئًا من هذه الزينة التي حببت إليه من طريق حرام، وفي الحديث: «حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات»[(١)]، فحب المعاصي من الرياء والشهوات لا إثم فيه، وكراهية فعل بعض المأمورات لا إثم فيه، وقد وضح ابن عبد السلام هذه المسألة: وليس حب الرياء وغيره من جميع المعاصي معصية؛ فإن أطلق عليه اسم الرياء كان ذلك مجازًا من تسمية السبب باسم المسبب، وكل شيء حرمه الله تعالى فلا يأثم مشتهيه بشهوته، وإنما بعزمه عليه وإرادة، ثم بملامسته، وكل ما تكرهه الطباع وتنفر القلوب والأسماع من الخيور والشرور، فلا إثم على كراهيته، ولا النفور منه، وإنما الإثم على فعله، إن كان قبيحًا، أو تركه إن كان حسنًا فشهوة الرياء والشكر وقهر الأقران وإضرار الأعداء لا إثم فيها، لخروجها عن قدره المكلف ولتعذر الانفكاك والانفصال عنها، ومن استعمل شيئًا من المحبوبات في غير بابه أخطأ وزلَّ[(٢)].

الفريق الثاني - عمل عكس ما عمل هؤلاء، فعندما يدعى إلى فعل خير أو يسأل حاجة أو تدعوه النفس إلى عمل خير يعرض في نفسه عارض الرياء، فيخشى من هذا الخاطر أن يكون، فيعرض عن العمل خوف الرياء، وهذا هرب من شر ووقع فيما هو أشد منه أو مثله، وقد تنبه العلماء الأعلام إلى هذا المزلق الخطر فحذروا منه.

يقول القاضي عياض: ترك العمل لأجل الناس رياء، والعمل لأجل الناس شرك[(٣)].

---

(١) رواه أحمد، ومسلم، والترمذي عن أنس ومسلم عن أبي هريرة، وأحمد عن ابن مسعود موقوفًا وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى برقم [٣١٤٧].

(٢) «قواعد الأحكام» (١/ ١٤٨).

(٣) «الرسالة القشيرية» ص [٩].

يقول النووي معلقًا على كلام القاضي: ومعنى كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى أن من عزم على عبادة، وتركها مخافة أن يراه الناس فهو مراءٍ، لأنه ترك العمل لأجل الناس، أما لو تركها ليصليها في الخلوة فهذا مستحب، إلا أن تكون فريضة، أو زكاة واجبة أو عالمًا يقتدى به فالجهر بالعبادة في ذلك أفضل[١]، وترك العمل خوفًا من الرياء حبالة من حبالات إبليس كما يقول ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: لإبليس في ذم الرياء حبالة، وذلك أنه رُب ممتنع من فعل خير يظن به الرياء، ولذلك ينصح من طرقه مثل هذا ألا يتلفت إليه، وأنه يمضي فيه إغاظة للشيطان، فإذا طرقك منه مثل هذا فامضى على فعلك، فهو شديد الألم عليه[٢]، ولو فعل إنسان هذا لأوشك إذا علم الشيطان بذلك أن يعترض له عند كل عمل بالخطرات بالرياء فيدع كل طاعة[٣].

---

(١) «شرح الأربعين النووية» ص[١١].

(٢) «الأخلاق والسير» [١٦].

(٣) قريب من هذه المسألة ما يقع لبعض الناس الذين ليس لهم عادة في العبادة والتهجد وقراءة القرآن في الليل أو في أطراف النهار، فإذا صحب قومًا هذا شأنهم انبعث إلى العبادة، ونشط وقد يظن بعض الناس أن هذا الرياء، وهذا ليس على إطلاقه كما يقول ابن قدامة، بل فيه تفصيل، ذلك أن المؤمن يرغب في عبادة ربه، ولكن تحول دون ذلك عوائق وتستهويه الغفلة، فربما كانت مشاهدة الغير كانت سببًا لزوال الغفلة، واندفاع العوائق، فإن الإنسان إذا كان في منزله تمكن من النوم على فراش وطيء وتمتع بزوجته، فإذا بات في مكان غريب اندفعت عنه الشواغل، وحصلت له أسباب تبعث على الخير، منها مشاهدة العابدين ففي مثل هذه الأحوال يتندب الشيطان للصد عن الباطل ولا يلتفت إلى وساوس الشيطان، وبين لنا ابن قدامة سبيلًا يختبر هذا وأمثاله فيه نفسه، وذلك بأن يمثل القوم في مكان يراهم ولا يرونه فإذا رأى نفسه تسخو بالتعبد فهو لله، وإن لم تسخُ كان سخاؤها عندهم رياء، وقس على هذا «مختصر منهاج القاصدين» ص[٢٣٤].

الفريق الثالث - الذين علموا أن الله ألزمهم بطاعته وعبادته، وأوجب عليهم أن يقاوموا أهواءهم، وأن يخلصوا دينهم لربهم، وهؤلاء نحتاج أن نبين لهم كيف يعالجون هذا المرض في نفوسهم، كي يكون سلاحًا في أيديهم يقيهم من مدخل الشيطان[1]، اهـ.

٢- ذم النفس أمام الناس بقصد الثناء عليها:

فسبحان الله ترى مثل هذا الإنسان يلبس ثياب المخلصين، وقلب المرائين، فكان حريًّا به أن يصدُقَ مع نفسه ويعلم حقيقة نفسه، فإذا ما وافقه أحد على هذا الذم الذي يصدر منه تراه يغضب ويخلق المعاذير ويذكر محاسن نفسه أمام هذا الذي وافقه على ما قال.

وقد قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: من ذم نفسه في الملأ، فقد مدحها وذلك من علامات الرياء.

وقد قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: أن الإنسان قد يذم نفسه بين الناس، يريد بذلك أن يرى الناس أنه متواضع عن نفسه، فيرتفع بذلك عندهم ويمدحونه به، وهذا من دقائق أبواب الرياء، وقد نبه عليه السلف الصالح، قال مطرف بن عبد الله بن الشخير: كفى بالنفس إطراء أن تذمها على الملأ كأنك تريد بذمها زينتها، وذلك عند الله سفه[2].

وقد قال ابن الجوزي في كتاب «تلبيس إبليس»: وأكثر ما يلبس به إبليس على العباد والزهاد خفيَّ الرياء، فأما الظاهر من الرياء فلا يدخل في التلبيس مثل: إظهار النحول، وصفارة الوجه، وشعث الشعر ليستدل به على الزهد، وكذلك خفض الصوت لإظهار الخشوع، وكذلك الرياء بالصلاة والصدقة، ومثل هذه الظواهر لا تخفى، وإنما تشير إلى خفي الرياء.

---

(١) أ.د الأشقر «الإخلاص».

(٢) شرح حديث «ما ذئبان جائعان» لابن رجب ص [٤٦].

وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنما الأعمال بالنيات»[١]، ومتى لم يرد بالعمل وجه الله عَزَّوَجَلَّ لم يقبل، قال مالك بن دينار: قولوا لمن لم يكن صادقًا: لا تتعب واعلم أن المؤمن لايريد بعمله إلا الله سبحانه وتعالى، وإنما يدخل عليه خفيَّ الرياء، فيلبس الأمر فنجاته منه صعبة، وفي الحديث مرفوعًا عن يسار قال لي يوسف بن أسباط: تعلموا صحة العمل من سقمه، فإني تعلمته في اثنتين وعشرين سنة[٢][٣].

٣- أن يعمل الإنسان عملاً بالليل ويحب أن يجد أثره في معاملات الناس بالنهار

ذكر الإمام الغزالي في كتاب (الإحياء)، وأخفى من ذلك أن يختفي العامل بطاعته بحيث لايريد الاطلاع، ولا يُسر بظهور طاعته، ولكنه مع ذلك إذا رأى الناس أحبَّ أن يبدءوه بالسلام، وأن يقابلوه بالبشاشة والتوقير وأن يثنوا عليه، وأن ينشطوا في قضاء حوائجه، وأن يسامحوه في البيع والشراء، وأن يوسعوا له في المكان، فإن قصر فيه مقصر ثقل ذلك على قلبه، ووجد لذلك استعبادًا في نفسه، كأنه يتقاضى الاحترام على الطاعة التي أخفاها مع أنه لم يطلع عليه، ولو لم يكن قد سبق منه تلك الطاعة لما كان يستبعد تقصير الناس في حقه، ومهما لم يكن وجود العبادة كعدمها في كل ما يتعلق بالخلق لم يكن قد قنع بعلم الله، ولم يكن خاليًا عن ثوب خفي من الرياء أخفى من دبيب النمل، ولكن ذلك يوشك أن يحبط الأجر ولا يسلم منه إلا الصديقون[٤].

---

(١) سيخرج الحديث في باب النية تخريجًا مستوفيًا.

(٢) قال شيخنا المحدث الفاضل الشيخ حلمي الرشيدي حفظه الله تعالى في تحقيق هذا الأثر في تحقيق كتاب «تلبيس إبليس» ليس هذا حديثًا مرفوعًا وإنما هو من قول يوسف والحديث المرفوع ما قاله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(٣) ذكره ابن الجوزي في كتاب «تلبيس إبليس» ص [١٧٣].

(٤) انظر كتاب «الإحياء» للإمام الغزالي (٣/ ٣٠٥-٣٠٦).

من عمل لله فحُمِدَ عليه

اعلـم أخـي الكريم أنك إذا كنت تعمل العمل تبتغي به وجه الله عَزَّوَجَلَّ ثم وجد من يحبك من الناس على هذا العمل ويثني عليك فتلك بشرى لك من الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يضرك ذلك، ففي الحديث الصحيح من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: يارسـول الله أرأيت الرجل يعمل العمل لله يحبه الناس عليه؟ قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تلك عاجل بشرى المؤمن**»(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال رجل: يا رسول الله، الرجل يعمل العمل فيسره، فإذا اطلع عليه أعجبه ذلك، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**له أجران أجر السر، وأجر العلانية**»(٢)، قال أبو عيسى: حديث حسن غريب.

وقـد روى الأعمـش وغـيره عـن حبيـب بـن أبي ثابت عـن أبي صالح عـن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرسلًا، وأصحاب الأعمش لم يذكروا فيه أبي هريرة.

قـال أبـو عيسـى: وقد فسر بعض أهـل العلم هذا الحديـث، فقـال: إذا اطلع عليه أعجبه، فإنما معناه أن يعجبه ثناء الناس عليه بالخير لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أنتم شهداء الله في الأرض، فيعجبـه ثنـاء الناس عليه لهذا لما يرجو بثنـاء الناس عليه، فأما إذا أعجبه ليعلم الناس منـه الخـير ليكرم على ذلك ويعظم عليه فهذا رياء**»، وقـال بعض أهل العلم: إذا اطلع عليه فأعجبه رجاء أن يعمل بعمله فيكون له مثل أجورهم فهذا له مذهبًا أيضًا.

---

(١) أخرجه مسلم برقم [٢٠٣٤]، كتاب «البر» باب إذا أُثني على الصالح [١٦٦-٢٦٤٢] وابن ماجة (٢/ ١٤١٢)، كتاب «الزهد» باب في الثناء الحسن.

(٢) أخرجه الإمام الترمذي في كتاب «الزهد» برقم [٢٣٨٤]، وابن ماجة في «الزهد» [٤٢٢٦]، وقال عنه الإمام الترمذي حديث حسن غريب.

وهذا كقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث الصحيح: «من سنَّ سُنة حسنة كان له أجر من عمل بها»[١]، ومما يوضح ذلك حديث آخر أن رجلًا قام من الليل يصلي فرآه جارٌ له فقام يصلي فغفر للأول.

من يريد الدنيا بعمله

قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى: ٢٠]. وقال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ﴾ [هود: ١٥-١٦]. قال مجاهد في هذه الآية: أهل الرياءِ أهل الرياءِ.

وقال تعالى: ﴿ مَّثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ﴾ [آل عمران: ١١٧]. قوله تعالى ﴿ فِيهَا صِرٌّ ﴾ أي: بردٌ شديدٌ، وقوله سبحانه وتعالى ﴿ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ أي: شديدة البرد.

عن أنس بن مالك أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «من كانت نيَّتُهُ طلب الآخرة، جعل الله غناه في قلبه وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت نيَّتُه طَلَب الدنيا جعل الله الفقر بين عينيه، وشتت عليه أمره، ولا يأتيه منها إلا ما كتب له»[٢].

وفي الحديث الصحيح الذي أخرجه الإمام مسلم في (صحيحه) وغيره من أهل السنن وذكره الإمام البغوي في كتاب (السنة) بهذا الإسناد، أخبرنا أبو بكر محمد بن

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم (٢/ ٧٠٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٤/ ٥٤٤) كتاب «صفة القيامة» باب من كانت الآخرة همه وابن ماجة (٢/ ١٣٧٥)، وكتاب «الزهد» باب الهم في الدنيا [٤١٠٥]، وصححه ابن حبان، وذكره الهيثمي في «موارد الظمآن» [٤٧]، كتاب «العلم» باب رواية الحديث [٧٢]، من حديث زيد بن ثابت بنحوه، وذكره الإمام البغوي في كتاب «السنة».

عبد الله بن أبي توبة الكشميهني، أنا أبو طاهر محمد بن أحمد بن الحارث، أنا أبو الحسن محمد بن يعقوب الكسائي، نا عبد الله بن محمود، نا إبراهيم بن عبد الله الخلال، نا عبد الله بن المبارك، عن حيوة بن شَرَيح، أخبرني الوليد بن أبي الوليد أبو عثمان المدائني أن عقبة بن مسلم حدثه:

أن شُفَيّ الأصبحِيّ حدَّثهُ أنهُ دخَل المدينَة فإذا هو برجُلٍ قد اجتَمَعَ عليه الناسُ، فقال: من هذا؟ فقالوا: أبُو هُرَيرَة، فدَنَوتُ منهُ حتى قعدتُ بين يديهِ، وهو يحدث الناسُ، فلما سكت وخلا، قُلتُ له: نشدتُك بحق وبحق لما حدثتني حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ عقلته وعَلِمته فقال أبو هريرة: أفعل لأحدثنك حديثًا حدثنيه رسول الله ﷺ عَقَلته وعلِمتُه ثم نشغ أبو هريرة نشغةً فمكث قليلًا ثم أفاق، فقال: لأحدثنك حديثًا حدثنيه رسول الله ﷺ في هذا البيت ما معنا أحدٌ غيري وغيرهُ، ثُم نشغ أبو هُريرة نشغَة أُخرى فمّكَث كذلك، ثم أفاق ومسحَ وَجهَهُ فقال أفعلُ لأحدثنك حديثًا حدثنيه رسول الله ﷺ أنا وَهُوَ في هذا البيتِ ما معنا أحدٌ غيري وغيره، ثم نشغ أبو هريرة نشغة شديدة، ثم مال خارًّا على وجهه، وأسندتُه طويلًا ثم أفاق، فقال: حدثني رسول الله ﷺ: «إن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهُم وكل أمةٍ جاثيةٌ، فأول من يدعُو به رجل جمع القرآن، ورجل يُقتل في سبيل الله، ورجُل كثير المال، فَيقول الله للقارئ: «ألم أُعلمك ما أنزلتُ على رَسُولي؟» قال: بلى يارب، قال: «فماذا عملت فيما علمت؟» قال: كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار، فيقول الله له: «كذبت» وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله: «بل أردت أن يقال: فلان قارئ، فقد قيل ذلك» ويؤتى بصاحب المال، فيقول الله لهُ: «ألم أُوسع عَلَيك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحدٍ؟» قال: بلى يارب، قال: فما عملت فيما آتيتك؟ قال كنت أصلُ الرحم، وأتصدق فيقول الله له: كذبت وتقول الملائكة له: كذبت ويقول الله: بل أردت أن يقال فلان جواد فقد قيل ذلك ويؤتى بالذي قتل في

سبيل الله فيقول له: في ماذا قتلت؟ فيقول: يارب أمرت بالجهاد في سبيل الله، فقاتلت حتى قتلت، فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله: «بل أردت أن يقال: فلان جريء، فقد قيل ذلك»، ثم ضرب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على رُكبتي، فقال: يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلق تسعر بهم النار يوم القيامة».

قال الوليد أبو عثمان: فأخبرني عقبة أن شُفيًّا هو الذي دخل على معاوية فأخبره بهذا، فقال أبو عثمان: وحدثني العلاء بن أبي حكيم أنه كان سيافًا لمعاوية قال: فدخل عليه رجل، فحدثه بهذا الحديث عن أبي هريرة، فقال معاوية: قد فعل بهؤلاء هذا، فكيف بمن بقي من الناس، ثم بكى معاوية بكاء شديدًا حتى ظننا أنه هالك، فقلنا له: قد جاءنا هذا الرجل بشرٍّ، ثم أفاق معاوية ومسح عن وجهه، وقال: صدق الله ورسوله ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [هود: ١٥-١٦](١).

حكم العمل المُراءى به

هل كل عمل خالطه قصد الرياء يعد باطلًا؟(٢)

لم تتفق نظرة العلماء في هذا الموضوع فالصنعاني ينظر إلى القصد هل تمحض للرياء أم صاحبه قصد الثواب، وفي الحالة الثانية هل كانت إرادة الثواب أرجح أو أضعف أو مساوية(٣)؟ وهو بذلك يضع أمامنا أربع صور لا يعطيها حكمًا واحدًا، والصورة الأولى

(١) الحديث أخرجه الترمذي (٤/ ٥١٠-٥١١-٥١٢)، كتاب «الزهد» ما جاء في الرياء والسمعة [٢٣٨٣]، وصححه ابن حبان وذكره الهيثمي في «موارد الظمآن» [٦١٨]، كتاب «الزهد» باب ما جاء في الرياء [٢٥٠٢].

(٢) انظر كتاب «الإخلاص» أ.د الأشقر.

(٣) «سبل السلام» (٤/ ١٨٥).

لا أظن أحدًا من العلماء خالف في الحكم عليها بالبطلان، وهي الحالة التي لا يقصد فيها العابد الثواب، إنما قصده كله أن ينال منزلة ومحمدة عند الناس.

وقد سمَّى ابن رجب[١]، هذا النوع من الرياء بالرياء المحض، وهذا يقع من المنافقين قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ [النساء: ١٤٢].

ويرى ابن رجب أن هذا النوع من الرياء لا يكاد يقع من مؤمن بالله واليوم الآخر في فرض الصلاة والصوم، وأنه قد يقع في الصدقة الواجبة أو الحج أو غيرهما من الأعمال الظاهرة أو التي يتعدى نفعها، فإن الإخلاص فيها عزيز.

ويقول ابن رجب في هذا: العمل على هذا النحو لا يشك مسلم أنه حابط وأن صاحبه يستحق المقت من الله والعقوبة[٢].

وقد سمَّى الحارث المحاسبي هذا النوع من الرياء: الرياء الأعظم والأشد، وقد قال فيه: الوجه الذي هو أشد الرياء وأعظمه، إرادة العبد العباد بطاعة الله عَزَّوَجَلَّ، لا يريد الله عَزَّوَجَلَّ بذلك[٣].

وقال الغزالي في هذا النوع: أما الذي لم يُرَد به إلا الرياء فهو عليه قطعًا، وهو سبب المقت والغضب[٤].

---

(١) هو عبد الرحمن بن شهاب الدين، أحمد بن رجب السلامي البغدادي، ثم الدمشقي من العلماء الأفذاذ الذين حفظوا الحديث، وقاموا عليه له «شرح جامع الترمذي»، و «جامع العلوم والحكم»، و«القواعد الفقهية»، ولادته في ٧٣٦هـ، ووفاته ٧٩٥هـ، راجع «شذرات الذهب» (٦/ ٣٣٩)، و«طبقات الحفاظ» ص [٥٣٦]، و«الأعلام» (٤/ ٦٧).

(٢) «الدين الخالص» (٢/ ٣٨٢).

(٣) «الرعاية» ص [١٣٥].

(٤) «إحياء علوم الدين».

أما الصور الثلاثة الأخرى فيكون قصد الرياء مصحوبًا بقصد الثواب، وإنما كانت الصور الثلاثة لأن إرادة الثواب قد تكون أرجح، وقد يكون قصد الرياء أرجح، وقد يتساويان، والصنعاني هنا يتابع الغزالي في النظر إلى قدر قوة الباعث[1]: فإن كان الباعث الديني مساويًا الباعث النفسي تقاوما وتساقطا، وصار العمل لا له ولا عليه، وإن كان باعث الرياء أغلب وأقوى فهو ليس بنافع، وهو مع ذلك مضر ومفض للعقاب؛ نعم العقاب الذي فيه أخف من عقاب العمل الذي تجرد للرياء، ولم يمتزج به شائبة التقرب، وإن كان قصد التقرب أغلب بالإضافة إلى الباعث الآخر فله ثواب بقدر ما فضل من قوة الباعث الديني.

والغزالي يرى أن هذا من العدل الذي تقتضيه قاعدة الثواب التي نص الله عليها في غير آية: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ [النساء: ٤٠]. فقصد الخير لا يضيع عند الله؛ فإن غلب قصد الرياء حبط منه القدر الذي يساويه وبقيت زيادة، وإن كان مغلوبًا سقط بسببه شيء من عقوبة القصد الفاسدة.

والغزالي يقوي مذهبه ويستدل عليه بالمعقول وبالنصوص، فهو يقول في توضيح مذهبه: وكشف الغطاء عن هذا أن الأعمال تأثيرها في القلوب بتأكيد صفاتها، فداعية الرياء من المهلكات، وإنما غذاء هذا المهلك وقوته في العمل على وفقه، وداعية الخير من المنجيات، وإنما قوتها بالعمل على وفقها، فإذا اجتمعت الصفتان في القلب فهما متضادتان، فإذا عمل على وفق مقتضى الرياء فقد قوَّى تلك الصفة، وإذا كان العمل على وفق مقتضى التقرب فقد قوى تلك الصفة وأحدهما مهلك والآخر مُنجٍ؛ فإن كان تقوية هذا بقدر تقوية الآخر فقد تقوما.

---

(١) راجع «إحياء علوم الدين» (٤/ ٣٨٤-٣٨٥)، وكل ما نقلناه عنه هنا فمن هذا الموضع.

وقد مُثِّل لهذا بالأمور المحسوسة، فالمستضر بالحرارة إذا تناول ما يضره، ثم تناول من المبردات ما يقاوم قدر قوته فيكون بعد تناولها كأنه لم يتناولهما، وإن كان أحدهما غالبًا لم يخل الغالب عن أثره، فكما لا يضيع مثقال ذرة من الطعام والشراب والأدوية، ولا ينفك عن أثر في الجسد بحكم سنة الله تعالى، فكذلك لا يضيع مثقال ذرة من الخير والشر، ولا ينفك عن تأثير في إنارة القلب أو تسويده، وفي تقريبه من الله أو إبعاده، فإذا جاء بما يقربه شبرًا مع ما يبعده شبرًا فقد عاد إلى ما كان، فلم يكن له ولا عليه، وإن كان الفعل مما يقربه شبرين والآخر يبعده شبرًا واحدًا فضل لا محالة شبر، وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اتبع السيئة الحسنة تمحها**»(١)، فإذا كان الرياء المحض يمحوه الإخلاص المحض عقبه، فإذا اجتمعا جميعًا فلابد وأن يتدافعا بالضرورة.

وقد استدل بإجماع منعقد على صحة الحج ممن قصد التجارة في حجه مع أن حجه قد امتزج به حظ من حظوظ النفس، وكذلك الغزاة الذين يقصدون نيل الأسلاب والغنائم هم من المجاهدين في سبيل الله، ولا يخرجهم ذلك عن كونهم مجاهدين، وإنما كان الأمر كذلك لأن الباعث الأصلي والمزعج القوي هو إعلاء كلمة الله، وإنما الرغبة في الغنيمة على سبيل التبعية، فلا يحبط به الثواب، نعم لا يساوي ثوابه ثواب من لا يلتفت قلبه إلى الغنيمة أصلًا، فإن هذا الالتفات لا محالة.

والغزالي لم تخف عليه النصوص التي تدل على أن العمل المشوب بالرياء باطل، كقوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]. وحديث الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار يوم القيامة، والأحاديث التي يَعُدُّ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرياء فيها شركًا والتي يقول الله فيها يوم القيامة للمرائي، خذ

(١) رواه الترمذي وقال: حديث حسن وفي بعض النسخ حسن صحيح، والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين «جامع العلوم» ص [١٤٧].

عملك ممن عملت، والحديث الذي يحصر الرسول ﷺ، فيه الجهاد فيمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، أقول لم تخف هذه النصوص عن الغزالي، ولم تغب عن باله، فهو يذكرها، ثم يعقب عليها قائلًا: هذه الأحاديث لا تناقض ما ذكرناه، بل المراد منها من لم يرد إلا الدنيا، كقوله: من هاجر يبتغي شيئًا من الدنيا، وكان ذلك هو الأغلب على همه...، وأما لفظ الشركة حيث ورد فلا مطلق للتساوي، وقد بينا أنه إذا تساوى القصدان تقاوما، ولم يكن له ولا عليه، فلا ينبغي أن يرجى عليه ثواب، ثم إن الإنسان عند الشركة في خطر أبدًا؛ فإنه لا يدري أي الأمرين أغلب على قصده، فربما يكون عليه وبالا...

هذا خلاصة مذهب الذين اتجهوا للنظر في قوة الدافع.

مناقشة ما احتج به أصحاب هذا المذهب:

قد يبدو للوهلة الأولى أن هذا المذهب مذهب قوي، وأن ما اعتمدوا عليه أمر منطقي.

قال الأستاذ الدكتور/ عمر بن سليمان[1] «ولكننا حين نمعن التأمل فيه نجده غير صواب، فالغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ينظر إلى قوة الدافع، فالدافع يستحوذ بالعمل ونحن نقول: إن قصد الرياء يفسد الإخلاص ويحبط العمل، وإن كان قليلًا، وهذا له أمثلة في الأمور المحسوسة، فهناك قطرة صغيرة من القذارة قد تفسد جو منزل بأكمله، لخبث رائحتها، وقطرة من السم قد تفسد الطعام الكثير، وقد ورد في بعض النصوص أنه لو قدر أن تسقط قطرة من طينة الخبال -عصارة أهل النار التي هي شرابهم- في أرضنا هذه فإننا لا نستطيع البقاء، لأنها ستملأ المشارق والمغارب خبثًا، فالقضية ينبغي أن ينظر إليها من

(١) كتاب «الإخلاص».

زاوية أخرى، هي أن الرياء يفسد الإخلاص، وبالتالي يبطل العمل الصالح، وقد دلت النصوص على أن الأعمال لا تقبل ما لم تكن خالصة يبتغي بها الله وحده، وحمل الغزالي لهذه النصوص الدالة على بطلان العمل المشوب بالرياء على الرياء المحض الذي لم يقصد فيه الثواب أصلًا، بعيد وبعيد جدًّا، فالثلاثة الذين هم أول من يقضي فيهم الله حكمه، وأول من تسعر بهم النار، وهم: المجاهد، وقارئ القرآن، والمنفق، هل يعقل أنهم كانوا لا يقصدون القربة مطلقًا؟! وقد ورد أكثر من حديث ينص على أن الرياء شرك والمشرك لا يقبل عمله، وقد عدّ القرطبي الرياء أحد أقسام الشرك الثلاثة مبطلًا للأعمال، قال: ويلي الرتبة[1]، الإشراك في العبادة، وهو الرياء، وهو أن يفعل شيئًا من العبادات التي أمر الله بفعلها بغيره، وهذا الذي سيقت الآيات والأحاديث لبيان تحريمه، وهو مُبطلٌ للأعمال، وهو خفي لا يعرفه كل جاهل غبي[2].

وممن ذهب هذا المذهب الحارث المحاسبي فهو يعده شركًا محبطًا للعمل يقول في الرعاية: إرادة العباد بطاعة الله عَزَّوَجَلَّ وإرادة ثواب الله عَزَّوَجَلَّ يجتمعان في القلب، والإرادتان: إرادة المخلوقين، وإرادة الثواب، وهو أدنى الرياء، وهو الشرك بالإرادة في العمل؛ لأنه أراد الله والناس فأشرك في عمله بطلب حمد الله عَزَّوَجَلَّ وطلب حمد المخلوقين[3].

---

(١) المرتبة الأولى هي الشرك الأعظم، وأصله اعتقاد شريك لله في الألوهية، وهو شرك أهل الجاهلية، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، ويليه في الرتبة: اعتقاد شريك لله تعالى في الفعل وهو قول من قال أن موجودًا ما غير الله تعالى يستقل بإحداث فعل وإيجاده، وإن لم يعتقد كونه إلهًا كالقدرية مجوس هذه الأمة، وعد الرياء في المنزلة الثالثة التالية انظر: «تفسير القرطبي» (٥/ ١٨١).

(٢) «تفسير القرطبي» (٥/ ١٨١).

(٣) «الرعاية» ص [١٣٦].

وأورد الأحاديث الدالة على أن هذا الشرك[١]، ومنها حديث محمود بن لبيد[٢]، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أخوفُ ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**» قالوا: وما الشرك الأصغر؟ قال: «**الرياء، قال: يقول الله عَزَّوَجَلَّ لهم يوم يجازي العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء**»[٣].

وقال رجل لعبادة بن الصامت[٤]: أقاتل في سبيل الله بسيفي أريد الله عَزَّوَجَلَّ ومحمدة المؤمنين، فقال: لا شيء لك، فسأله ثلاث مرات كل ذلك يرد عليه: لا شيء لك، ثم قال في الثالثة: إن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: «**أنا أغنى الشركاء عن الشريك، من عمل عملًا وأشرك معي شريكًا، ودعت نصيبي لشريكي**»[٥]، وعن شداد بن أوس قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**من يصلي يرائي فقد أشرك، ومن صام يرائي فقد أشرك، ومن تصدق يرائي فقد أشرك**»[٦]، وعن أبي سعيد الخدري[٧] قال: خرج علينا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(١) راجع في هذه النصوص «الرعاية» ص [١٣٦] وما بعدها.

(٢) هو محمود بن لبيد بن عقبة بن رافع، من بني عبد الأشهل، من الأنصار، من أولاد الصحابة، لا يصح له سماع من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وروى عن كبار الصحابة، توفي عام ٩٦هـ راجع خلاصة «تهذيب الكمال» (٣/ ١٥)، «شذرات الذهب» (١/ ١١٢).

(٣) الحديث عزاه التبريزي إلى ابن ماجة والبيهقي في «شعب الإيمان»، وقال محقق المشكاة: إسناد ضعيف «مشكاة المصابيح» (٢/ ٦٨٦).

(٤) هو عبادة بن الصامت الأنصاري الخزرجي صحابي موصوف بالورع شهد العقبة، وكان أحد النقباء، مات بالرملة بفلسطين سنة ٣٤هـ، راجع «تهذيب التهذيب» (٥/ ١١٠)، و«خلاصة تهذيب الكمال» (٢/ ٣٢)، و«الكاشف» (٢/ ٦٤).

(٥) هذا الأثر الذي ذكره المحاسبي عزاه ابن كثير في تفسيره (٤/ ٤٣٢)، إلى ابن أبي حاتم، وقد رواه مسلم مرفوعًا عن أبي هريرة بلفظ، قال تعالى: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه» «مشكاة المصابيح» (٢/ ٦٨٣).

(٦) رواه أحمد «مشكاة المصابيح» (٢/ ٦٨٦).

(٧) هو سعد بن مالك بن سنان بن ثعلبة بن عبيد بن خدره أبو سعيد، بايع تحت الشجرة، وشهد ما بعد أحد، وكان من علماء الصحابة توفي سنة ٧٤هـ، راجع «تهذيب التهذيب» (٣/ ٤٧٩)، «سير أعلام النبلاء» (٣/ ١٣٨).

ونحن نتذاكر المسيح الدجال فقال: «**ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟**» فقلنا: بلى يا رسول الله، قال: «**الشرك الخفي، أن يقوم الرجل، فيصلي، فيزيد في صلاته لما يرى من نظر رجل**»(١)، والثاني يريد الناس ورب الناس وكلاهما محبط للعمل، وذكر القرطبي أن هذا القول: نقله الحافظ أبو نعيم في الحلية عن بعض السلف، واستدل بعضهم بقوله تعالى: ﴿ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: ٢٣]، فكما أنه كبر عن الزوجة والشريك والولد، تكبر أن يقبل عملًا أشرك فيه غيره، فهو تعالى أكبر كبير ومتكبر(٢)، وقد نسب ابن نجيم إلى بعض الأحناف القول بكفر من صلى رياء، وقال بعضهم: لا أجر له، وعليه الوزر وقال بعضهم: لا أجر له، ولا وزر عليه، وهو كأنه لم يصل(٣)، وقال ابن القيم: وهذا الشرك في العبادة يبطل ثواب العمل، وقد يعاقب عليه إذا كان العمل واجبًا، فإنه ينزل منزلة من لم يعمله، فيعاقب على ترك الأمر، فإن الله سبحانه إنما أمر بعبادته خالصًا، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥]. فمن لم يخلص لله في عبادته لم يفعل ما أمر به بل الذي أتى به شيء غير مأمور به فلا يصح ولا يقبل منه...(٤).

بيان حقيقة الرياء وما يراءى به

قال الإمام أبو حامد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: اعلم أن الرياء مشتق من الرؤية، والسُّمعة مشتقة من السماع، وإنما الرياء أصله طلب المنزلة في قلوب الناس بإيرائهم خصال الخير إلا أن الجاه والمنزلة تطلب في القلب بأعمال سوى العبادات وتطلب العبادات، واسم الرياء مخصوص بحكم العادة بطلب المنزلة في القلوب بالعبادات وإظهارها فحد الرياء

(١) رواه ابن ماجة، وقال محقق المشكاة: إسناده حسن، وهو في «المشكاة» برقم (٢/ ٦٨٧).
(٢) «الأربعين النووية» ص [١٠].
(٣) «الأشباه والنظائر» لابن نجيم ص [٣٩].
(٤) «الداء والدواء» ص [١٩١].

هو إرادة العباد بطاعة الله فالمرائي هو العابد والمراءى هو الناس المطلوب رؤيتهم بطلب المنزلة في قلوبهم، والمراءى به هو الخصال التي قصد المرائي إظهارها، والرياء هو قصده إظهار ذلك، والمراءى به كثير وتجميعه خمسة أقسام وهي مجامع ما يتزين به العبد للناس وهو البدن والزي والقول والعمل والاتباع والأشياء الخارجة، وكذلك أهل الدنيا يراءون بهذه الأسباب الخمسة إلا أن طلب الجاه وقصد الرياء بأعمال ليست من جملة الطاعات أهون من الرياء بالطاعات.

القسم الأول- الرياء في الدين بالبدن:

وذلك بإظهار النحول والصفار ليوهم بذلك شدة الاجتهاد وعظم الحزن على أمر الدين وغلبة خوف الآخرة، وليدل بالنحول على قلة الأكل وبالصفار على سهر الليل وكثرة الاجتهاد وعظم الحزن على الدين، وكذلك يرائي بتشعيث الشعر ليدل به على استغراق الهم بالدين وعدم التفرغ لتسريح الشعر، وهذه الأسباب مهما ظهرت استدل الناس بها على هذه الأمور فارتاحت النفس لمعرفتهم، فذلك تدعوه النفس إلى إظهارها لنيل تلك الراحة، ويقرب من هذا خفض الصوت وإغارة العينين وذبول الشفتين، ليستدل بذلك على أنه مواظب على الصوم، وأن وقار الشرع هو الذي خفض من صوته أو ضعف الجوع هو الذي ضعف قوته، وعن هذا قال المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ: إذا صام أحدكم فليدهن رأسه ويرجل شعره ويكحل عينيه، وكذلك روي عن أبي هريرة وذلك كله لما يخاف عليه من نزغ الشيطان بالرياء، ولذلك قال ابن مسعود: اصبحوا صيامًا مدهنين، فهذه مراءاة أهل الدين بالبدن، فأما أهل الدنيا فيراءون بإظهار السمن وصفاء اللون واعتدال القامة وحسن الوجه ونظافة البدن وقوة الأعضاء وتناسبها.

القسم الثاني - الرياء بالهيئة والزي:

أما الهيئة فبتشعيث شعر الرأس وحلق الشارب وإطراق الرأس في المشي والهدوء في الحركة وإبقاء أثر السجود على الوجه، وغلظ الثياب، ولبس الصوف وتشميرها إلى قريب من الساق، وتقصير الأكمام وترك تنظيف الثوب وتركه مخرقًا، كل ذلك يرائي به ليظهر من نفسه أنه متبع للسنة فيه ومقتد فيه بعباد الله الصالحين، ومن ذلك لبس المرقعة والصلاة على السجادة ولبس الثياب الزرق تشبهًا بالصوفية مع الإفلاس من حقائق التصوف في الباطن، ومنه التقنع بالإزار فوق العمامة وإسبال الرداء على العينين ليرى به أنه قد انتهى تقشفه إلى الحذر من غبار الطريق، ولِتُصرَفُ إليه الأعين بسبب تميزه بتلك العلامة، ومنه الدراعة والطيلسان يلبسه من هو خال عن العلم ليوهم أنه من أهل العلم.

والمراءون بالزي على طبقات، فمنهم من طلب المنزلة عند أهل الصلاح بإظهار الزهد فيلبس الثياب المخرقة الوسخة القصيرة الغليظة ليرائي بغلظها ووسخها وقصرها وتخرقها أنه غير مكترث بالدنيا، ولو كلف أن يلبس ثوبًا وسطًا نظيفًا مما كان السلف يلبسه لكان عنده بمنزلة الذبح، وذلك لخوفه أن يقول الناس قد بداله من الزهد ورجع عن تلك الطريقة ورغب في الدنيا، وطبقة أخرى يطلبون القبول عند أهل الصلاح وعند أهل الدنيا من الملوك والوزراء والتجار، ولو لبسوا الثياب الفاخرة ردهم القراء ولو لبسوا الثياب المخرقة البذلة ازدرتهم أعين الملوك والأغنياء فهم يريدون الجمع بين قبول أهل الدين والدنيا، فلذلك يطلبون الأصواف الدقيقة والأكسية الرقيقة والمرقعات المصبوغة والفوط الرفيعة فيلبسونها، ولعل قيمة ثوب أحد الأغنياء ولونه وهيئته لون ثياب الصلحاء فيلتمسون القبول عند الفريقين، وهؤلاء إن كلفوا لبس ثوب خشن أو وسخ لكان عندهم كالذبح خوفًا من السقوط من أعين الملوك والأغنياء، ولو كلفوا

لبس الديبقي والكتان الدقيق الأبيض والمقصب المعلم، وإن كانت قيمته دون قيمة ثيابهم لعظم ذلك عليهم خوفًا من أن يقول أهل الصلاح قد رغبوا في زِيِّ أهل الدنيا، وكل طبقة منهم رأى منزلة في زي مخصوص فيثقل عليه الانتقال إلى ما دونه أو إلى ما فوقه وإن كان مباحًا خيفة من المذمة.

وأما أهل الدنيا؛ فمراءاتهم بالثياب النفيسة والمراكب الرفيعة وأنواع التوسع والتجمل في الملبس والمسكن وأثاث البيت، ووفرة الخيول، وبالثياب المصبغة والطيالسة النفيسة وذلك ظاهر بين الناس في أنهم يلبسون في بيوتهم الثياب الخشنة ويشتد عليهم لو برزوا للناس على تلك الهيئة ما لم يبالغوا في الزينة.

القسم الثالث- الرياء بالقول:

ورياء أهل الدين بالوعظ والتذكير والنطق بالحكمة وحفظ الأخبار والآثار؛ لأجل الاستعمال في المحاورة وإظهارًا لغزارة العلم ودلالة على شدة العناية بأحوال السلف الصالحين، وتحريك الشفتين بالذكر في محضر الناس والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمشهد الخلق، وإظهار الغضب للمنكرات وإظهار الأسف على مقارفة الناس للمعاصي وتضعيف الصوت في الكلام وترقيق الصوت بقراءة القرآن ليدل بذلك على الخوف والحزن، وادعاء حفظ الحديث ولقاء الشيوخ والدق على من يروي الحديث ببيان خلل لإظهار الفضل فيه، والمجادلة على قصد إفحام الخصم ليظهر للناس قوته في علم الدين، والرياء بالقول كثير وأنواعه لا تنحصر.

وأما أهل الدنيا، فمراءاتهم بالقول بحفظ الأشعار والأمثال والتفاصح في العبارات وحفظ النحو الغريب للأغراب على أهل الفضل وإظهار التودد إلى الناس لاستمالة القلوب.

القسم الرابع- الرياء بالعمل:

كمراءاة المصلي بطول القيام ومد الظهر وطول السجود والركوع وإطراق الرأس، وترك الالتفات وإظهار الهدوء والسكون وتسوية القدمين واليدين، وكذلك بالصوم والغزو والحج وبالصدقة وبإطعام الطعام، وبالإخبات في المشي عند اللقاء كإرخاء الجفون وتنكيس الرأس والوقار في الكلام، حتى أن المرائي قد يسرع في المشي إلى حاجته فإذا اطلع عليه أحد من أهل الدين رجع إلى الوقار وإطراق الرأس خوفًا من أن ينسبه إلى العجلة وقلة الوقار، فإن غاب الرجل عاد إلى عجلته، فإذا رآه عاد إلى خشوعه ولم يحضره ذكر الله حتى يكون يجدد الخشوع له، بل هو لاطلاع إنسان عليه يخشى أن لا يعتقد فيه أنه من العباد والصلحاء، ومنهم من إذا سمع هذا استحيا من أن تخالف مشيته في الخلوة مشيته بمرأى من الناس، فيكلف نفسه المشية الحسنة في الخلوة حتى إذا رآه الناس يفتقر في الغير ويظن أن يتخلص به عن الرياء وقد تضاعف به رؤياه؛ فإنه صار في خلوته أيضًا مرائيًا، فإنه إنما يحسن مشيته في الخلوة ليكون كذلك في الملأ لا لخوف من الله وحياء منه.

وأما أهل الدنيا؛ فمراءاتهم بالتبختر والاختيال وتحريك اليدين وتقريب الخُطا والأخذ بأطراف الذيل وإدارة العطفين ليدلوا بذلك على الجاه والحشمة.

القسم الخامس - المراءاة بالأصحاب والزائرين والمخالطين:

كالذي يتكلف أن يستزير عالمًا من العلماء ليقال: إن فلانًا قد زار فلانًا، أو عابدًا من العباد ليقال: إن أهل الدين يتبركون بزيارته ويترددون إليه، أو ملكًا من الملوك أو عاملًا من عمال السلطان ليقال: إنهم يتبركون به لعظم رتبته في الدين، وكالذي يكثر ذكر الشيوخ ليرى أنه لقي شيوخًا كثيرة واستفاد منهم فيباهي بشيوخه ومباهاته

ومراءاته تترشح منه عند مخاصمته، فيقول لغيره: من لقيت من الشيوخ وأنا قد لقيت فلانًا وفلانًا ودرت البلاد وخدمت الشيوخ وما يجري مجراه.

فهذه مجامع ما يرائي به المراءون وكلهم يطلبون بذلك الجاه والمنزلة في قلوب العباد، ومنهم من يقنع بحسن الاعتقادات فيه فكم من راهب انزوى إلى ديره سنين كثيرة؟ وكم من عابد اعتزل إلى قلة جبل مدة مديدة، وإنما خبأته من حيث علمه بقيام جاهه في قلوب الخلق ولو عرف أنهم نسبوه إلى جريمة في ديره أو صومعته لتشوش قلبه ولم يقنع بعلم الله ببراءة ساحته، بل يشتد لذلك غمه ويسعى بكل حيلة في إزالة ذلك من قلوبهم، مع أنه قد قطع طمعه من أموالهم ولكنه يحب مجرد الجاه -فإنه لذيذ كما ذكرناه في أسبابه- فإنه نوع قدرة وكمال في الحال، وإن كان سريع الزوال لا يغتر إلا الجُهَّال ولكن أكثر الناس جهال ومن المرائيين من لا يقنع بقيام منزلته بل يلتمس من ذلك إطلاق اللسان بالثناء والحمد، ومنهم من يريد انتشار الصيت في البلاد لتكثر الرحلة إليه، ومنهم من يريد الاشتهار عند الملوك لتقبل شفاعته وتنجز الحوائج على يده فيقوم له بذلك جاه عند العامة، ومنهم من يقصد التوصل بذلك إلى جمع حطام وكسب مال ولو من الأوقاف وأموال اليتامى وغير ذلك من الحرام، وهؤلاء شَرُّ طبقات المرائيين الذين يراءون بالأسباب التي ذكرناها، فهذه حقيقة الرياء وما به يقع الرياء.

فإن قلت: فالرياء حرام أو مكروه أو مباح أو فيه تفصيل؟ فأقول: فيه تفصيل فإن الرياء هو طلب الجاه، وهو إما أن يكون بالعبادات أو بغير العبادات؛ فإن كان بغير العبادات فهو كطلب المال فلا يحرم من حيث إنه طلب منزلة في قلوب العباد، ولكن كما لا يمكن كسب المال بتلبيسات وأسباب محظورات فكذلك الجاه، وكما أن كسب قليل من المال هو ما يحتاج إليه الإنسان محمود فكسب قليل من الجاه وهو ما

يسلم به عن الآفات أيضًا محمود، وهو الذي طلبه يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: قال تعالى: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].

وكما أن المال فيه سم ناقع ودرياق نافع فكذلك الجاه، وكما أن كثير المال يلهي ويطغى وينسي ذكر الله والدار الآخرة فكذلك كثير الجاه بل أشد، وفتنة الجاه أعظم من فتنة المال، وكما أنا لا نقول تملك المال الكثير حرام فلا نقول أيضًا تملك القلوب الكثيرة حرام إلا إذا حملته كثرة المال وكثرة الجاه على مباشرة ما لا يجوز.

نعم انصراف الهمِّ إلى سعة الجاه مبدأ الشرور كانصراف الهم إلى كثرة المال، ولا يقدر محبُّ الجاه والمال على ترك معاصي القلب واللسان وغيرها، وأما سعة الجاه من غير حرص منك على طلبه ومن غير اغتمام بزواله إن زال فلا ضرر فيه، فلا جاه أوسع من جاه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجاه الخلفاء الراشدين ومن بعدهم من علماء الدين، ولكن انصراف الهم إلى طلب الجاه نقصان في الدين ولا يوصف بالتحريم، فعلى هذا نقول: تحسين الثوب الذي يلبسه الإنسان عند الخروج إلى الناس مراءاة وهو ليس بحرام لأنه ليس رياء بالعبادة بل بالدنيا، وقس على هذا كل تجمل للناس وتزين لهم والدليل عليه ما روي عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أراد أن يخرج يومًا إلى الصحابة فكان ينظر في جب الماء ويسوي عمامته وشعره فقالت: أو تفعل ذلك يا رسول الله؟ قال: «**نعم، إن الله تعالى يحب من العبد أن يتزين لإخوانه إذا خرج إليهم**»[1]، نعم هذا كان من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبادة لأنه كان مأمورًا بدعوة الخلق وترغيبهم في الاتباع واستمالة قلوبهم، ولو سقط من أعينهم، فإن أعين عوام الخلق تمتد إلى الظواهر دون السرائر، فكان ذلك قصد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولكن لو قصد قاصد به أن يحسن نفسه في أعينهم

(١) حديث عائشة: أراد أن يخرج على أصحابه، وكان ينظر في جُبِّ الماء ويسوي عمامته وشعره... والحديث أخرجه ابن عدي في «الكامل».

حذرًا من ذمهم ولومهم واستروا حًا إلى توقيرهم واحترامهم كان قد قصد أمرًا مباحًا، إذ للإنسان أن يحترز من ألم المذمة ويطلب راحة الإنسان بالإخوان، ومهما استثقلوه واستقذروه لم يأنس بهم.

فإذن المراءاة بما ليس من العبادات قد تكون مباحة، وقد تكون طاعة، وقد تكون مذمومة، وذلك بحسب الغرض المطلوب بها، ولذلك نقول: الرجل إذا أنفق من ماله على جماعة من الأغنياء لا في معرض العبادة والصدقة ولكن ليعتقد الناس أنه سخي مراءاة وليس بحرام وكذلك أمثاله، أما العبادات كالصدقة والصلاة والصيام والغزو والحج فللمرائي فيه حالتان إحداهما: أن لا يكون له قصد إلا الرياء المحض دون الأجر، وهذا يبطل عبادته لأن الأعمال بالنيات، وهذا ليس بقصد العبادة، ولا يقتصر على إحباط عبادته حتى نقول صار كما كان قبل العبادة بل يعصي بذلك ويأثم كما دلت عليه الأخبار والآيات.

والمعنى فيه أمران:

أحدهما. يتعلق بالعباد وهو التلبيس والمكر؛ لأنه خيل إليهم أنه مخلص مطيع لله وأنه من أهل الدين وليس كذلك، والتلبيس في أمر الدنيا حرام أيضًا حتى لو قضى دين جماعة وخُيِّل للناس أنه متبرع عليهم ليعتقدوا سخاوته أثم به لما فيه من التلبيس وتملك بالخداع والمكر.

والثاني. يتعلق بالله وهو أنه مهما قصد بعبادة الله تعالى خلق الله فهو مستهزئ بالله ولذلك قال قتادة: إذا راءى العبد قال الله لملائكته انظروا إليه يستهزئ بي.

ومثالـه أن يتمثل بين يدي ملك من الملوك طـول النهار كما جرت عادة الخدم وإنما وقوفه لملاحظة جارية من جواري الملك أو غلام من غلمانه؛ فإن هذا اسـتهزاء بالملك إذا لم يقصد التقرب إلى الملك بخدمته بل قصد بذلك عبدًا من عبيده، فأي استحقارٍ يزيد على أن يقصد العبد بطاعة الله تعالى مراءاة عبد ضعيف لا يملك له ضرًّا ولا نفعًا؟ وهل ذلك إلا لأنه يظن أن ذلك العبد أقدر على تحصيل أغراضه من الله؟ وأنه أولى بالتقريب من الله إذ آثـره عـلى ملك الملوك بجعله مقصود عبادته؟ وأيُّ اسـتهزاء يزيد على رفع العبد فوق المولى؟ فهذا من كبائر المهلكات ولهذا سماه رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الشرك الأصغر[1].

ثم بعض درجات الرياء أشد من بعض، ولا يخلو شيء منه عن إثم غليظ أو خفيف بحسـب ما به المراءاة ولو لم يكن في الرياء إلا أنه يسـجد ويركع لغير الله لكان فيه كفاية؛ فإنـه وإن لم يقصـد التقرب إلى الله فقد قصد غير الله ولعمري لو عظم غير الله بالسـجود لكفر كفرًا جليًّا إلا أن الرياء هو الكفر الخفي؛ لأن المرائي عَظَّم في قلبه الناس، فاقتضت تلك العظمة أن يسـجد ويركع فكان الناس هم المعظمون بالسجود من وجه، ومهما زال قصـد تعظيـم الله بالسـجود وبقي تعظيم الخلـق كان ذلك قريبًا من الـشرك إلا إنه قصد تعظيم نفسـه في قلب من عظم عنده بإظهاره من نفسـه صورة التعظيم لله، فعن هذا كان شركًا خفيًّـا لا شركًا جليًّـا، وذلـك غايـة الجهل ولا يقـدم عليه إلا من خدعه الشـيطان وأوهـم عنـده أن العباد يملكون من ضره ونفعه ورزقه وأجله ومصالح حاله ومآله أكثر ممـا يملكـه الله تعالى، فلذلك عـدل بوجهه عن الله إليهـم وأقبل بقلبه عليهم وليسـتميل بذلـك قلوبهم، ولو وكله الله تعالى إليهم في الدنيا والآخرة لكان ذلك أقل مكافأة لهُ على صنيعه؛ فإن العباد كلهم عاجزون عن أنفسهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا فكيف

(١) حديث: سُمي الرياء الشرك الأصغر، أخرجه أحمد من حديث محمود بن لبيد وقد تقدم، ورواه الطبراني من رواية محمود بن لبيد عن رافع بن خديج فجعله في مسند رافع وتقدم تقريبًا، وللحاكم وصحح إسناده من حديث شداد بن أوس، كنا نَعدُّ على عهد رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن الرياء هو الشرك الأصغر.

يملكون لغير هذا في الدنيا؟ فكيف في يوم لا يجزي والدٌ عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئًا بل تقول الأنبياء فيه نفسي نفسي؟ فكيف يستبدل الجاهل عن ثواب الآخرة ونيل القرب عند الله ما يرتقبه بنعمه الكاذب في الدنيا من الناس؟ فلا ينبغي أن نشك في أن المرائي بطاعة الله في سخط الله من حيث النقل والقياس جميعًا هذا إذا لم يقصد الأجر فأما إذا قصد الأجر والحمد جميعًا في صدقته أو صلاته فهو الشرك الذي يتناقض مع الإخلاص.

***

obeikandi.com

علاج الرياء وطريق معالجة القلب فيه

هـا هـي بين يديـك أخي الحبيب المسـلم أدويـة ناجعـةً أسـأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يجعلها لك شـافية كافية نافعةً اسـتخرجتها لك من بطون كتب أهل العلم الذين نحسـبهم والله حسيبهم من المخلصين الذين أخلصهم الله لدينه.

قـال الإمـام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعـالى: إن الرياء مُحبِطٌ للأعمال وسـبب للمقت عند الله تعالى، وأنه من كبائر المهلكات، وما هذا وصفه أخي فجدير بالتشـمير عن سـاق الجد في إزالته ولو بالمجاهدة وتحمل المشـاق، فلا شـفاء إلا في شرب الأدوية المرّة البشـعة، وهذه مجاهـدة يضطر إليهـا العباد كُلهم، إذ الصبي يخلق ضعيف العقـل والتمييز ممتدّ العين إلى الخلـق كثير الطمع فيهم، فيرى الناس يتصنع بعضهـم لبعض فيغلب عليه حب التصنع ويرسـخ ذلك في نفسـه وإنما يشعر بكونه مهلكًا بعد كمال عقله وقد انغرس الرياء في قلبه وترسـخ فيه فلا يقدر على قمعه إلا بمجاهدة شديدة ومكابدة لقوة الشهوات، فلا ينفك أحد عن الحاجة إلى هذه المجاهدة، ولكنها تشق أولًا وتخف آخرًا وفي علاجه مقامان:

أحدهما- قلع عروقه وأصوله التي منها انشعابه.

والثاني- دفع ما يخطر منه في الحال.

المقـام الأول- في قلع عروقه واسـتئصال أصوله، وأصله حـب المنزلة والجاه، وإذا فضـل رجـع إلى ثلاثة أصـول وهي لذة المحمـدة، والفرار مـن ألم الـذم، والطمع فيما في أيـدي الناس، ويشـهد للرياء بهذه الأسـباب وأنها الباعثـة للمرائي ما روى أبو موسـى أن أعرابيًّا سـأل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسـول الله الرجل يقاتل[1] حمية -ومعناه أنه يأنـف أن يقهـر أو يذم بأنه مقهور مغلـوب- قال: والرجل يقاتل لـيرى مكانه وهذا هو طلـب لـذة الجاه والقدر في القلـوب، والرجل يقاتل للذكر -وهذا هو الحمد باللسـان-

(١) حديث متفق عليه من حديث أبي موسى.

فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**» وقال ابن مسعود: إذا التقى الصفان نزلت الملائكة فكتبوا الناس على مراتبهم؛ فلان يقاتل للذكر، وفلان يقاتل للملك، والقتال للملك إشارة إلى الطمع في الدنيا، وقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يقولون: فلان شهيد ولعله يكون قد ملأ دفتي راحلته ورقًا، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من غزا لا يبغي إلا عقالًا فله ما نوى**»(١)، فهذا إشارة إلى الطمع، وقد لا يشتهي الحمد ولا يطمع فيه ولكن يحذر من ألم الذم كالبخيل بين الأسخياء وهم يتصدقون بالمال الكثير فإنه يتصدق بالقليل كي لا يبخل، وهو ليس يطمع في الحمد وقد سبقه غيره، وكالجبان بين الشجعان لا يفر من الزحف خوفًا من الذم وهو لا يطمع في الحمد وقد هجم غيره على صف القتال، ولكن إذا أيس من الحمد كره الذم، وكالرجل بين قوم يصلون جميع الليل فيصلي ركعات معدودة حتى لا يذم بالكسل وهو لا يطمع في الحمد، وقد يقدر الإنسان على الصبر عن لذة الحمد ولا يقدر على الصبر على ألم الذم، ولذلك قد يترك السؤال على علمٍ هو مُحتاج إليه خيفة من أن يذم بالجهل، ويفتي بغير علم ويدعي العلم بالحديث وهو به جاهل، كل ذلك حذرًا من الذم فهذه الأمور الثلاثة هي التي تحرك المرائي إلى الرياء...

ولكننا نذكر الآن ما يخصُّ الرياء وليس يخفى أن الإنسان إنما يقصد الشيء ويرغب فيه لظنه إنه خير له ونافع ولذيذ، إما في الحال وإما في المآل؛ فإن علم أنه لذيذ في الحال ولكنه ضار في المآل سهل عليه قطع الرغبة عنه، كمن يعلم أن العسل لذيذ ولكن إذا بان له أن فيه سُمًّا أعرض عنه، فكذلك طريق قطع هذه الرغبة أنه يعلم ما فيه من المضرة، ومهما عرف العبد مضرة الرياء وما يفوته من صلاح قلبه وما يحرم عنه في الحال من التوفيق وفي الآخرة المنزلة عند الله، وما يتعرض له من العقاب العظيم والمقت الشديد والخزي الظاهر، حيث يُنادَى على رءوس الخلائق: يا فاجر يا غادر يا مرائي، أما استحييت إذا

(١) أخرجه النسائي.

اشتريت بطاعة الله عرض الدنيا، وراقبت قلوب العباد واستهزأت بطاعة الله، وتحببت إلى العباد بالتبغيض إلى الله، وتزينت لهم بالشين عند الله، وتقربت إليهم بالبعد من الله، وتحمدت إليهم بالتذمم عند الله، وطلبت رضاهم بالتعرض لسخط الله، أما كان أحد أهون عليك من الله! فمهما تفكر العبد في هذا الخزي وقابل ما يحصل له من العباد والتزين لهم في الدنيا بما يفوته في الآخرة ربما يحبط من ثواب الأعمال، مع أن العمل الواحد ربما كان يترجح به ميزان حسناته لو خلص؛ فإذا فسد بالرياء حول إلى كفة السيئات فترجح به ويهوي إلى النار.

فلو لم يكن في الرياء إلا إحباط عبادة واحدة لكان ذلك كافيًا في معرفة ضرره وإن كان مع ذلك سائر حسناته راجحة، فقد كان ينال بهذه الحسنة علو الرتبة عند الله في زروة النبيين والصديقين، وقد حط عنهم بسبب الرياء، ورد إلى صف النعال من مراتب الأولياء، هذا مع ما يتعرض له في الدنيا من تشتت الهم بسبب ملاحظة قلوب الخلق؛ فإن رضا الناس غاية لا تدرك، فكل ما يرضى به فريق يسخط به فريق ورضا بعضهم في سخط بعضهم، ومن طلب رضاهم في سخط الله سخط الله عليه، وأسخطهم أيضًا عليه، ثم أي غرض له في حمدهم وإيثار ذم الله لأجل حمدهم؟ ولا يزيده حمدهم رزقًا ولا أجلًا ولا ينفعه يوم فقره وفاقته وهو يوم القيامة، وأما الطمع فيما في أيديهم فبأن يعلم أن الله تعالى هو المسخر للقلوب بالمنع والإعطاء، وإن الخلق مضطرون فيه ولا رازق إلا الله، ومن طمع في الخلق لم يخل من الذل والخيبة، وإن وصل إلى المراد لم يخل عن المنة والمهانة، فكيف يترك ما عند الله برجاء كاذب ووهم فاسد قد يصيب وقد يخطئ وإذا أصاب فلا تفي لذته بألم منته ومذلته؟

وأما ذمهم فلم يحذر منه ولا يزيده ذمهم شيئًا ما لم يكتبه عند الله، ولا يعجل أجله ولا يؤخر رزقه، ولا يجعله من أهل النار إن كان من أهل الجنة، ولا يبغضه إلى الله إن كان محمودًا عند الله، ولا يزيده مقتًا إن كان ممقوتًا عند الله، فالعباد كلهم عجزة لا يملكون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعًا ولا يملكون موتًا ولا حياة ولا نشورًا، فإذا قرر في قلبه آفة هذه الأسباب وضررها فترت رغبته وأقبل على الله قلبه؛ فإن العاقل لا يرغب فيما يكثر ضرره ويقل نفعه، ويكفيه أن الناس لو علموا ما في باطنه من قصد الرياء وإظهار الإخلاص لمقتوه، وسيكشف الله عن سره حتى يبغضه إلى الناس ويعرفهم أنه مراءٍ وممقوت عند الله، ولو أخلص الله لكشف الله لهم إخلاصه وحببه إليهم وسخرهم له وأطلق ألسنتهم بالمدح والثناء عليه، مع أنه لا كمال في مدحهم ولا نقصان في ذمهم كما قال شاعر من بني تميم: إن مدحي زين وإن ذمي شين! فقال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كذبت، ذاك الذي لا إله إلا هو**»[1]، إذ لا زين إلا في مدحه ولا شين إلا في ذمه فأي خير لك في مدح الناس، وأنت عند الله مذموم ومن أهل النار؟ وأي شر لك من ذم الناس وأنت عند الله محمود في زمرة المقربين؟ فمن أحضر في قلبه الآخرة ونعيمها المؤبد والمنازل الرفيعة عند الله استحقر ما يتعلق بالخلق أيام الحياة مع ما فيه من الكدورات والمنغصات، واجتمع همه وانصرف إلى الله قلبه وتخلص من مذمة الرياء ومقاسات قلوب الخلق وانعطف من إخلاصه أنوار على قلبه ينشرح بها صدره وينفتح بها له من لطائف المكاشفات ما يزيد به أنسه بالله ووحشته من الخلق واستحقاره للدنيا واستعظامه للآخرة، وسقط محل الخلق من قلبه وانحل عنه داعية الرياء وتذلل له منهج الإخلاص، فهذا وما قدمناه في الشطر الأول هي الأدوية العلمية القالعة مغارس الرياء.

---

(١) حديث: قال شاعر من بني تميم: إن مدحي زين وإن ذمي شين، فقال: «كذبت ذاك الله» أخرجه أحمد من حديث الأقرع بن حابس وهو قائل ذلك دون قوله كذبت ورجاله ثقات إلا أني لا أعرف لأبي سلمة بن عبد الرحمن سماعًا من الأقرع، ورواه الترمذي من حديث البراء وحسنه بلفظ رجل: إن حمدي.

وأما الدواء العملي:

فهو أن يعود نفسه إخفاء العبادات وإغلاق الأبواب دونها، كما تغلق الأبواب دون الفواحش، حتى يقنع قلبه بعلم الله أو اطلاعه على عباداته ولا تنازعه النفس إلى طلب علم غير الله به، وقد رُوي أن بعض أصحاب أبي حفص الحداد ذم الدنيا وأهلها فقال: أظهرت ما كان سبيلك أن تخفيه لا تجالسنا بعد هذا، فلم يرخص في إظهار هذا القدر لأن في ضمن ذم الدنيا دعوى الزهد فيها، فلا دواء للرياء مثل الإخفاء، وذلك يشق في بداية المجاهدة، وإذا صبر عليه مدة بالتكلف سقط عنه ثقله وهان عليه ذلك بتواصل ألطاف الله وما يمد به عباده من حسن التوفيق والتأييد والتسديد ولكن قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرَّعْد: ١١]. فمن العبد المجاهدة ومن الله الهداية، ومن العبد قرع الباب ومن الله فتح الباب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [التَّوْبَة: ١٢٠]. وقال تعالى: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النِّسَاء: ٤٠].

المقام الثاني - في دفع العارض منه في أثناء العبادة وذلك لابد من تعلمه أيضًا؛ فإن من جاهد نفسه وقلع مغارس الرياء من قلبه بالقناعة وقطع الطمع وإسقاط نفسه من أعين المخلوقين واستحقار مدح المخلوقين وذمهم فالشيطان لا يتركه في أثناء العبادات، بل يعارضه بخطرات الرياء، ولا تنقطع عنه نزعاته وهوى النفس وميلها لا ينمحي بالكلية، فلابد وأن يتشمر لدفع ما يعرض من مخاطر الرياء، وخواطر الرياء ثلاثة، قد تخطر دفعة واحدة كالخاطر الواحد وتترادف على التدرج.

فالأول: العلم باطلاع الخلق ورجاء اطلاعهم:

ثم يتلوه هيجان الرغبة من النفس في حمدهم وحصول المنزلة عندهم، ثم يتلوه هيجان الرغبة في قبول النفس له والركون إليه وعقد الضمير على تحقيقه.

فالأول - معرفة، والثاني - حالة تسمى الشهوة والرغبة، والثالث - فعل يسمى العزم وتصميم العقد؛ وإنما كمال القوة في دفع الخاطر الأول ورده قبل أن يتلوه الثاني، فإذا خطر له معرفة اطلاع الخلق أو رجاء اطلاعهم دفع ذلك بأن قال: مالك وللخلق علموا أو لم يعلموا والله عالم بحالك فأي فائدة في علم غيره؟ فإن هاجت الرغبة إلى لذة الحمد يذكر ما رسخ في قلبه من قبل من آفة الرياء وتعرضه للمقت عند الله في القيامة وخيبته في أحوج أوقاته إلى أعماله، فكما أن معرفة اطلاع الناس تثير شهوة ورغبة في الرياء فمعرفة آفة الرياء تثير كراهة له تقابل تلك الشهوة، إذ يتفكر في تعرضه لمقت الله وعقابه الأليم، والشهوة تدعوه إلى القبول، والكراهة تدعوه إلى الإباء، والنفس تطاوع لا محالة أقواهما وأغلبهما.

فإذن لابد في رد الرياء من ثلاثة أمور:

١- المعرفة.

٢- الكراهة.

٣- الإباء.

وقد شرع العبد في العبادة على عزم الإخلاص، ثم يرد خاطر الرياء فيقبله ولا تحضره المعرفة ولا الكراهة التي كان الضمير منطويًا عليها، وإنما سبب ذلك امتلاء القلب بخوف الذم وحب الحمد واستيلاء الحرص عليه بحيث لا يبقى في القلب متسع لغيره، فيعزب عن القلب المعرفة السابقة بآفات الرياء وشؤم عاقبته إذ لم يبق موضع في القلب خالٍ عن شهوة الحمد أو خوف الذم، وهو كالذي يحدث نفسه بالحلم وذم الغضب، ويعزم على التحلم عند جريان سبب الغضب ثم يجري من الأسباب ما يشتد

به غضبه فينسى سابقة عزمه ويمتلئ قلبه غيظًا يمنع من تذكر آفة الغضب ويشغل قلبه عنه، فكذلك حلاوة الشهوة تملأ القلب وتدفع نور المعرفة مثل مرارة الغضب، وإليه أشار جابر بقوله: بايعنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحت الشجرة على أن لا نفر ولم نبايعه على الموت فأنسيناها يوم حنين[1]، حتى نودي: يا أصحاب الشجرة فرجعوا، وذلك لأن القلوب امتلأت بالخوف فنسيت العهد السابق حتى ذكروا، وأكثر الشهوات التي تهجم فجأة هكذا تكون، إذ ينسى معرفة مضرته الداخلة في عقد الإيمان، ومهما نسي المعرفة لم تظهر الكراهة فإن الكراهة ثمرة المعرفة، وقد يتذكر الإنسان فيعلم أن الخاطر الذي خطر له هو خاطر الرياء الذي يعرضه لسخط الله، ولكن يستمر عليه لشدة شهوته، فيغلب هواه عقله ولا يقدر على ترك لذة الحال، فيسوف بالتوبة أو يتشاغل عن التفكر في ذلك لشدة الشهوة، فكم من عالم يحضره كلام لا يدعوه إلى فعله إلا رياء الخلق وهو يعلم ذلك، ولكنه يستمر عليه فتكون الحجة عليه أوَكد؟ إذ قبل داعي الرياء مع علمه بغائلته وكونه مذمومًا عند الله، ولا تنفعه معرفته إذا خلت المعرفة عن الكراهة، وقد تحضر المعرفة والكراهة ولكن مع ذلك يقبل داعي الرياء لكون الكراهة ضعيفة بالإضافة إلى قوة الشهوة، وهذا أيضًا لا ينتفع بكراهته إذ الغرض من الكراهة أن تصرف عن الفعل.

فإذًا لا فائدة إلا في اجتماع الثلاث: وهي المعرفة، والكراهة، والإباء، فالإباء ثمرة الكراهة، والكراهة ثمرة المعرفة، وقوة المعرفة بحسب قوة الإيمان ونور العلم، وضعف المعرفة بحسب الغفلة وحب الدنيا ونسيان الآخرة وقلة التفكير فيما عند الله وقلة التأمل في آفات الحياة الدنيا وعظيم نعيم الآخرة، وبعض ذلك ينتج بعضًا ويثمره، وأصل ذلك كله حب الدنيا وغلبة الشهوات فهو رأس كل خطيئة، ومنبع كل ذنب، لأن حلاوة

---

(١) حديث جابر «بايعنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحت الشجرة على أن لا نفر...» أخرجه مسلم مختصرًا دون ذكر (يوم حنين) فرواه مسلم من حديث العباس.

حب الجاه والمنزلة ونعيم الدنيا هي التي تغضب القلب وتسلبه وتحول بينه وبين التفكر في العاقبة والاستضاءة بنور الكتاب والسنة وأنوار العلوم؛ فإن قلت: فمن صادف من نفسه كراهة الرياء وحملته الكراهة على الإباء ولكنه مع ذلك غير خال عن ميل الطبع إليه وحبه له ومنازعته إياه إلا أنه كاره لحبه ولميله إليه وغير محبب إليه، فهل يكون في زمرة المرائين؟ فاعلم أن الله لم يكلف العباد إلا ما تطيق وليس في طاقة العبد منع الشيطان عن نزغاته ولا قمع الطبع حتى لا يميل إلى الشهوات ولا ينزغ إليها وإنما غايته أن يقابل شهوته بكراهة استثارها من معرفة العواقب وعلم الدين وأصول الإيمان بالله واليوم الآخر، فإذا فعل ذلك فهو الغاية في أداء ما كلف به، ويدل على ذلك من الأخبار ما روي أن أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شكوا إليه وقالوا: تعرض لقلوبنا أشياء لأن نخر من السماء فتخطفنا الطير أو تهوى بنا الريح في مكان سحيق أحب إلينا من أن نتكلم بها فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**أوقد وجدتموه**»، قالوا: نعم، قال: «**ذلك صريح الإيمان**»(١)، ولم يجدوا إلا الوسواس والكراهة له، ولا يمكن أن يقال أراد بصريح الإيمان الوسوسة، فلم يبق إلا حمله على الكراهة المساوية للوسوسة، والرياء وإن كان عظيمًا فهو دون الوسوسة في حق الله تعالى؛ فإذا اندفع ضرر الأعظم بالكراهة فبأن يندفع بها ضرر الأصغر أولى، وكذلك يروى عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث ابن عباس أنه قال: «**الحمد لله الذي رد كيد الشيطان إلى الوسوسة**»(٢)، وقال أبو حازم: ما كان من نفسك وكرهته نفسك لنفسك فلا يضرك ما هو عدوك، وما كان من نفسك فرضيته نفسك لنفسك فعاتبها عليه. فإذن وسوسة الشيطان ومنازعة النفس لا تضرك مهما رددت مرادهما بالإباء

(١) حديث: «شكوى الصحابة ما يعرض في قلوبهم وقوله: ذلك صريح الإيمان» أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود مختصرًا، سئل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الوسوسة فقال: «ذلك محض الإيمان» والنسائي في اليوم والليلة وابن حبان في صحيحه، ورواه النسائي فيه من حديث عائشة.

(٢) حديث ابن عباس: «الحمد لله الذي رد كيد الشيطان إلى الوسوسة» أخرجه أبو داود والنسائي في اليوم والليلة بلفظ «كيده».

والكراهة، والخواطر التي هي العلوم والتذكرات والتخيلات للأسباب والمهيجة للرياء هي من الشيطان، والرغبة والميل بعد تلك الخواطر من النفس والكراهة من الإيمان ومن آثار العقل، إلا أن للشيطان ههنا مكيدة وهي أنه إذا عجز عن حمله على قبول الرياء خيل إليه أن صلاح قلبه في الاشتغال بمجادلة الشيطان ومطاولته في الرد والجدال حتى يسلبه ثواب الإخلاص وحضور القلب، لأن الاشتغال بمجادلة الشيطان ومدافعته انصراف عن سر المناجاة مع الله فيوجب ذلك نقصانًا في منزلته عند الله.

والمتخلصون عن الرياء في دفع خواطر الرياء على أربع مراتب:

الأولى- أن يرده على الشيطان فيكذبه، ولا يقتصر عليه بل يشتغل بمجادلته ويطيل الجدال معه لظنه أن ذلك أسلم لقلبه، وهو على التحقيق نقصان، لأنه اشتغل عن مناجاة الله وعن الخير الذي هو بصدده وانصرف إلى قتال قطاع الطريق، والتعريج على قتال قطاع الطريق نقصان في السلوك.

الثانية- أن يعرف أن الجدال والقتال نقصان في السلوك فيقتصر على تكذيبه ودفعه ولا يشتغل بمجادلته.

الثالثة- أن لا يشتغل بتكذيبه أيضًا لأن ذلك وقفة وإن قلت، بل يكون قد قرّر في عقد ضميره كراهة الرياء وكذب الشيطان فيستمرّ على ما كان عليه مستصحبًا للكراهة غير مشتغل بالتكذيب ولا بالمخاصمة.

الرابعة- أن يكون قد علم أن الشيطان سيحسده عند جريان أسباب الرياء، فيكون قد عزم على أنه مهما نزغ الشيطان زاد فيما هو فيه من الإخلاص والاشتغال بالله وإخفاء الصدقة والعبادة غيظًا للشيطان، وذلك هو الذي يغيظ الشيطان ويقمعه ويوجب يأسه وقنوطه حتى لا يرجع، يروى عن الفضيل بن غزوان أنه قيل له: إن فلانًا يذكرك، فقال: والله لأغيظن من أمره، قيل: ومن أمره؟ قال: الشيطان، اللهم اغفر له، أي لأغيظنه بأن

أطيع الله فيه، ومهما عرف الشيطان من عبد هذه العادة كف عنه خيفة من أن يزيد في حسناته، وقال إبراهيم التيمي: إن الشيطان ليدعو العبد إلى الباب من الإثم، فلا يطعه وليحث عند ذلك خيرًا، فإذا رآه كذلك تركه، وقال أيضًا: إذا رآك الشيطان مترددًا طمع فيك، وإذا رآك مداومًا ملَّك وقلاك.

وضرب الحارث المحاسبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ لهذه الأربعة مثالًا أحسن فيه فقال: مثالهم كأربعة قصدوا مجلسًا من العلم والحديث لينالوا به فائدة وفضلًا وهداية ورشدًا، فحسدهم على ذلك ضالٌّ مبتدع وخاف أن يعرفوا الحق، فتقدم إلى واحد فمنعه وصرفه عن ذلك ودعاه إلى مجلس ضلال فأبى، فلما عرف إباءه شغله بالمجادلة فاشتغل معه ليرد ضلاله وهو يظن أن ذلك مصلحة له، وهو غرض الضال ليفوت عليه بقدر تأخره، فلما مر الثاني عليه نهاه واستوقفه، فوقف فدفع في نحر الضال ولم يشتغل بالقتال واستعجل، ففرح منه الضال بقدر توقفه للدفع فيه، ومرّ به الثالث فلم يلتفت إليه ولم يشتغل بدفعه ولا بقتاله، بل استمر على ماكان، فخاب منه رجاؤه بالكلية، فمر الرابع فلم يتوقف له، وأراد أن يغيظه فزاد في عجلته وترك التأني في المشي، فيوشك إن عادوا ومروا عليه مرة أخرى أن يعاود الجميع إلا هذا الأخير فإنه لا يعاوده خيفة من أن يزداد فائدة باستعجاله؛ فإن قلت: فإذا كان الشيطان لا تؤمن نزغاته يجب الترصد له قبل حضوره للحذر منه انتظارًا لوروده، أم يجب التوكل على الله ليكون هو الدافع له، أو يجب الاشتغال بالعبادة والغفلة عنه؟ قلنا: اختلف الناس فيه على ثلاثة أوجه.

فذهبت فرقة من أهل البصرة إلى أن الأقوياء قد استغنوا عن الحذر من الشيطان لأنهم انقطعوا إلى الله واشتغلوا بحبه فاعتزلهم الشيطان وأيس منهم وخنس عنهم، كما

أيس من ضعفاء العباد في الدعوى إلى الخمر والزنا، فصارت ملاذ الدنيا عندهم، وإن كانت مباحة، كالخمر والخنزير فارتحلوا من حبها بالكلية فلم يبقَ للشيطان إليهم سبيل فلا حاجة بهم إلى الحذر، وذهبت فرقة من أهل الشام إلى الترصد للحذر منه إنما يحتاج إليه من قلَّ يقينه ونقص توكله، فمن أيقن بأن لا شريك لله في تدبيره فلا يحذر غيره ويعلم أن الشيطان ذليل مخلوق ليس له أمر ولا يكون إلا ما أراده الله فهو الضار والنافع، والعارف يستحي منه أن يحذر غيره، فاليقين بالوحدانية يغنيه عن الحذر.

وقالت فرقة من أهل العلم: لابد من الحذر من الشيطان وما ذكره البصريون من أن الأقوياء قد استغنوا عن الحذر وخلت قلوبهم عن حب الدنيا بالكلية فهو وسيلة الشيطان يكاد يكون غرورًا، إذ الأنبياء عليهم السلام لم يتخلصوا من وسواس الشيطان ونزغاته فكيف يتخلص غيرهم؟ وليس كل وسواس الشيطان من الشهوات وحب الدنيا، بل في صفات الله تعالى وأسمائه، وفي تحسين البدع والضلال وغير ذلك، ولا ينجو أحد من الخطر فيه ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢].

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنه ليغان على قلبي»(١)، مع أن شيطانه قد أسلم ولا يأمره إلا بخير(٢)، فمن ظن أن اشتغاله بحب الله أكثر من اشتغال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسائر الأنبياء عليهم السلام فهو مغرور، ولم يؤمنهم من كيد الشيطان ولذلك لم يسلم منه آدم وحواء في الجنة التي هي دار الأمن والسرور بعد أن قال الله لهما: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ١١٧ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ﴾ [طه: ١١٧-١١٩]. ومع أنه لم ينه إلا عن شجرة واحدة وأطلق له

(١) حديث: «إنه ليغان على قلبي» صحيح رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي.

(٢) حديث: «إن شيطانه أسلم فلا يأمر إلا بخير».

وراء ذلك ما أراد، فإذا لم يأمن نبي من الأنبياء وهو في الجنة دار الأمن والسعادة من كيد الشيطان، فكيف يجوز لغيره أن يأمن في دار الدنيا وهي منبع المحن والفتن، معدن الملاذ والشهوات المنهي عنها؟ وقال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فيما أخبر عنه تعالى: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [القصص: ١٥]. ولذلك حذر الله منه جميع الخلق، فقال الله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧]. وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧]. والقرآن من أوله إلى آخره تحذير من الشيطان فكيف يدع الأمن منه؟ وأخذ الحذر من حيث أمر الله به لا ينافي الاشتغال بحب الله؛ فإن من الحب له امتثال أمره وقد أمر بالحذر من العدو كما أمر بالحذر من الكفار قال تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٢]. وقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠]. فإذا لزمك بأمر الله الحذر من العدو الكافر وأنت تراه فبأن يلزمك الحذر من عدو يراك ولا تراه أولى.

ولذلك قال بن محيرز: صيد تراه ولا يراك يوشك أن تظفر به وصيد يراك ولا تراه يوشك أن يظفر بك، فأشار إلى الشيطان، فكيف وليس في الغفلة عن عداوة الكافر إلا قتل هو شهادة وفي إهمال الحذر من الشيطان التعرض للنار والعقاب الأليم؟ فليس من الاشتغال بالله الإعراض عما حذر الله، وبه يبطل مذهب الفرقة الثانية في ظنهم أن ذلك قادح في التوكل؛ فإن أخذ الترس والسلاح وجمع الجنود وحفر الخندق لم يقدح في توكل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فكيف يقدح في التوكل الخوف مما خوف الله به والحذر مما أمر بالحذر منه؟ وقد ذكرنا[1] في كتاب التوكل ما يبين غلط من زعم أن معنى التوكل النزوع عن الأسباب بالكلية وقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠]، لا يناقض امتثال التوكل، مهما اعتقد القلب أن الضار والنافع

(١) يعني الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ.

والمحيي والمميت هو الله تعالى، فكذلك يحذر الشيطان ويعتقد أن الهادي والمضل هو الله، ويرى الأسباب وسائط مسخرة، وهذا ما اختاره الحارث المحاسبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو الصحيح الذي يشهد له نور العلم، وما قبله يشبه أن يكون من كلام العباد الذي لم يغزر علمهم، ويظنون أن ما يهجم عليهم من الأحوال في بعض الأوقات من الاستغراق بالله يستمر على الدوام وهو بعيد.

ثم اختلفت هذه الفرقة على ثلاثة أوجه في كيفية الحذر فقال قوم: إذا حذرنا الله تعالى العدو فلا ينبغي أن يكون شيء أغلب في قلوبنا عن ذكره والحذر منه والترصد له؛ فإنا إن غفلنا عنه لحظة فيوشك أن يهلكنا، وقال قوم: إن ذلك يؤدي إلى خلو القلب عن ذكر الله واشتغال الهم كله بالشيطان وذلك مراد الشيطان منا، بل نشتغل بالعبادة وبذكر الله تعالى ولا ننسى الشيطان وعداوته والحاجة إلى الحذر منه فنجمع بين الأمرين؛ فإنا إن نسيناه ربما عرض من حيث لا نحتسب، وإن تجردنا لذكره كنا قد أهملنا ذكر الله، فالجمع أولى.

وقال العلماء المحققون: غلط الفريقان؛ أما الأول فقد تجرد لذكر الشيطان ونسي ذكر الله فلا يخفي غلطه، وإنما أمرنا بالحذر من الشيطان كيلا يصدنا عن الذكر فكيف نجعل ذكره أغلب الأشياء على قلوبنا وهو منتهى ضرر العدو؟ ثم يؤدي ذلك إلى خلو القلب عن نور ذكر الله تعالى، فإذا قصد الشيطان مثل هذا القلب وليس فيه نور ذكر الله تعالى وقوة الاشتغال به فيوشك أن يظفر به ولا يقوى على دفعه، فلم يأمرنا بانتظار الشيطان ولا بإدمان ذكره، وأما الفرقة الثانية فقد شاركت الأولى إذ جمعت في القلب بين ذكر الله والشيطان، وبقدر ما يشتغل القلب بذكر الشيطان ينقص من ذكر الله، وقد أمر الله الخلق بذكره ونسيان ما عداه -إبليس وغيره- فالحق أن يلزم العبد قلبه الحذر من الشيطان ويقرر على نفسه عداوته، فإذا اعتقد ذلك وصدق به وسكن الحذر فيه فيشتغل

بذكر الله ويكب عليه بكل الهمة ولا يخطر بباله أمر الشيطان؛ فإنه إذا اشتغل بذلك بعد معرفة عداوته ثم خطر الشيطان له تنبه له، وعند التنبه يشتغل بدفعه والاشتغال بذكر الله لا يمنع من التيقظ عند نزغه الشيطان، بل الرجل ينام وهو خائف من أن يفوته مهم عند طلوع الصبح، فيلزم نفسه الحذر وينام على أن يتنبه في ذلك الوقت فيتنبه في الليل مرات قبل أوانه لما أسكن في قلبه من الحذر، مع أنه بالنوم غافل عنه، فاشتغاله بذكر الله كيف يمنع تنبهه؟ ومثل هذا القلب هو الذي يقوى على دفع العدو إذا كان اشتغاله بمجرد ذكر الله تعالى قد أمات منه الهوى وأحيا فيه نور العقل والعلم وأماط عنه ظلمة الشهوات، فأهل البصيرة أشعروا قلوبهم عداوة الشيطان وترصده وألزموها الحذر، ثم لم يشتغلوا بذكره بل بذكر الله ودفعوا بالذكر شر العدو واستضاءوا بنور الذكر حتى صرفوا خواطر العدو، فمثال القلب مثال بئر أريد تطهيرها من الماء القذر ليتفجر منها الماء الصافي، فالمشتغل بذكر الشيطان قد ترك فيها الماء القذر، والذي جمع بين ذكر الشيطان وذكر الله قد نزح الماء القذر من جانب ولكنه تركه جاريًا إليها من جانب آخر فيطول تعبه ولا تجف البئر من الماء القذر، والبصير هو الذي جعل لمجرى الماء القذر سدًّا وملأها بالماء الصافي فإذا جاء الماء القذر دفعه بالسكر والسد من غير كلفة ومؤنة وزيادة تعب[1].

* * *

(١) كتاب «الإحياء» للإمام أبي حامد الغزالي (٣/ ٢٩٠-٢٩٦).